ممدوح القديرى

فوق الهيب الشموع



رواية





فوق لهيب الشموع

رواية

ممدوح القليرى

لوحة الغلاف للفنان : عبدالله الشيخ

الطبعة العربية الأولى : ١٩٩٩

رقم الإيداع : ١٥١٣٢ / ٩٩

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-291-175-2



رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

المشرف العام على السلسلة الأدبية

خيرى عبد الجواد

الجمع والصف الالكترونى
مركز الحضارة العربية
تنفيذ : شريف على

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات ت : ٣٤٤٨٣٦٨

ممدوح القديرى

فوق لهيب الشموع

رواية



إهداء

إلى ..

سيدتين تأثرت بهما كثيراً :

– والدتى التى ربتنى وأرضعتنى حب الوطن .

– وزوجتى التى علمتنى كيف يكون حب الوطن .

ممدوح القديرى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

فنون الأدب مجموعة من التجارب الإنسانية تنبثق من الحياة على امتداد الزمان تخرج من الذاكرة بكل ما فيها من اتجاهات وتناقضات تصورها اللغة - ذاكرة الجميع - لايخترعها المبدعون ، لكنهم يستخدمونها بأسلوب مميز جديد - وهنا يكمن سر الإبداع ذلك الذى يستحق الإبهار . حين يُلْبس القديم أو الواقع القائم أو ما يمكن أن يكون ذلك الثوب الوجدانى القشيب . فالفن ينهل من الحياة - سواء فى نهارها الوضىء أو فى ليلها الاستوائى البهيم .. قد تتشابه المواقف وقد يختلط الخيال بالواقع ، والوهم بالحقيقة.. والتناص شاهد على الجميع . قد يشعر البعض بالتماهى مع ما هو موجود أمام عيونهم فتحدث الدهشة ، وهم يرون سرقة حياتهم بكل مافيها من فرح وترح ولذة ومرح - بحرارة الإحساس وصقيع التبلد والخور - إلا أن الفن لاينكر هذا ولايعترف بذاك ، فالبشر يتشابهون وكل إبداع جديد قد يكون من ثوب الآخرين - لكنه قطعًا مختلف - فإذا تشابهت المواقف والأسماء فذلك محض مصادفة - أو توارد عجيب للخواطر - فى عالم اختلطت فيه الأمور إلى حد الهوس .

ممدوح القديرى

إننى أتخلى راضيًا عن كل مالحقنى من مجد لامرأة
يساورها القلق إذا تأخرتُ قليلاً عن موعدعشائي .

تورجنيف

الهيب الأول

مغتربون

(١)

الليل ثقيل .. متباطئ .. والنافذة الوحيدة فى الغرفة تسمح لتيار هواء بارد أن يعبر على استحياء داخلها ... يحرك بعض أوراق مبعثرة على مكتب صغير مغطى بالغبار ، ترسم الأوراق فى حركتها خطوطًا مستقيمة على سطحه .. ومع استمرار تيار الهواء تهتز صورة كبيرة لفتاة شقراء فى مقتبل العمر – معلقة على الجدار قرب باب الحجرة المفتوح ..ينظر إليها ثم يعاود الاستغراق فى مطالعة كتاب أصفر الصفحات ، له غلاف سميك رمادى اللون .يده ترتجف قليلاً وهو يحاول قلب صفحة أنهى قراءتها ...

نسمات من الهواء البارد تمر على شعيرات رأسه التى خالطها الشيب – يرفع يده بحركة لا إرادية ليدفئ سطح رأسه بعد أن شعر بالبرودة فيمرر راحة كفه عليه .. يعاود القراءة ، يهز ساقه اليسرى حين يريد التركيز ، وهى عادة لازمته مذ كان طالبًا فى المرحلة الابتدائية .. يمسك قلمه ويضع بعض خطوط متقاربة تحت بعض العبارات ، ثم يقرؤها بصوت منخفض وكأنه يهمس إلى شخص آخر بجواره : «لم يلبث نيرون أن تزوج بوبيا، التى استطاعت أن تخضعه لنفوذها ..» يتوقف ... تتوارد الأفكار فى ذهنه عن ذلك الإمبراطور الرومانى الشديد القسوة إلى درجة الجنون وهو يعذب الآخرين ويسفك دماءهم بشهوة سادية . يشعر بعدها بلذة الانتصار ... يعاود القراءة بصوت خطابى . حاول سنيكا أن يعيده إلى جادة الصواب فأجبره نيرون على الانتحار – لكن الرومان اعتبروا انتحار سنيكا عملاً نبيلاً ... زوّد حنقهم على نيرون الذى تملكته شهوة الانتقام فقتل أمه ثم زوجته أوكتافيا – كان طموحه أن يكون شاعرًا عظيمًا ، وحين انتحر – كانت آخر كلماته : "إن العالم سيفتقد بموتى فنانًا عظيمًا" .

عند ذلك قفل الكتاب ، تملكه خوف غريب وقشعريرة جعلته ينكمش على نفسه .. صمت رهيب يلف المكان ، والضوء يخبو ثم يتوهج - الكآبة تطل من كل شيء يقع عليه بصره .. نباح عميق لكلب مكلوم ، كأنه نعي بصوت غير مفهوم ، كثف من شعوره بالوحدة . تحسس سريره الذى يجلس عليه دوماً حين يتابع السفر بين السطور .. شعر أن سريره يكاد يصيح تبرماً من كثرة البقاء عليه .. حتى أن الفرشة أصبحت أكثر تضرساً فمكان الجلوس بدا كصحن بيضاوى الشكل فى الركن القريب من طرفها .. الغرفة بأثاثها البسيط صارت صفحة محفوظة - يستطيع أن يرسمها وهو مغمض العينين . ينهض ليثبت الصورة الكبيرة فى مكانها بعد أن جعلها تيار الهواء المتدفق تميل إلى الجهة اليسرى ...

يتجه إلى النافذة ، يقف قليلاً .. يرفع رأسه إلى أعلى ، يأخذ نفساً عميقًا . ملأ الهواء رئتيه ، ونفسه تتوق إلى حرية من نوع لا يعرفه واقع هذا العالم المليء بالمفارقات - الضاغط على كاهله . أحس أن حاضره يتماهى مع ذلك الزمان البعيد الذى عاش فيه نيرون وهو يغتصب الأمان من النفوس.. ارتسمت على محياه ابتسامة ذابلة وهو فى هذه الزاوية المعتمة من القرية التى يعيش فيها ، وحنين دافق يتنامى فى أعماقه إلى هدوء ينقله إلى عالم مليء بآمال عريضة حالمة ، متناغمة ، تنساب بنعومة وتساوق إلى نفسه المعذبة بالقلق على اللحظة الراهنة بكل كثافتها - أطلت من عينيه نظرة يمتزج فيها الحنان والقسوة وهو يستمع إلى أغنية قديمة من المذياع الراقد فوق منضدة صغيرة قرب السرير . كان يحب أن يرددها لطرد ضباب الملل ، يسرح معها كلغز يبحث عن حل ، يشعر بالبرودة ، يلملم أطراف ثوبه ويمسك أعلى ياقته بيده اليمنى حتى لايصاب بوعكة برد تقعده فى الفراش لعدة أيام ....

أوحشه سكون الليل فى مدينته يافا وهى ترقد قرب شاطئ البحر بعيدة

عنه ، تجتر آلامها بعد أن فقدت الكثير من أهلها ، وهى تعيش كابوس ليلها بعد أن اغتصبها دخيل يزداد ولعه بتعذيب الآخرين من أبناء الوطن بلذة الماركيز دى صاد الغريبة ويافا لاتنام . عيناها ، دومًا – شاخصتان إلى الأفق باتجاهاته الأربعة تنتظر الخلاص الذى طال انتظاره . . .

تذكر حالة الضياع التى يعيشها بعيداً عن الأهل فى غربته القسرية بحثًا عن لقمة العيش المريرة – فى هذه القرية التى ترقد فى هذا الوقت من الليل تحت ضوء القمر الجسور . وهى تهجع مستكينة فى حضن الجبل الشامخ بين التلال الرملية والسهول المكسوة بالأعشاب والنباتات الشوكية وأشجار الطلح – تبدو البيوت غير واضحة المعالم كعلب كبريت ضخمة تنتشر فى مساحة صغيرة عند السفح وفوق المنطقة السهلية الضيقة التى تزدحم فيها حقول صغيرة المساحة بلا نظام هندسى ، تعود ملكيتها إلى أُسر القرية كل حسب قوة نفوذه الماضية التى سمحت له بامتلاك تلك المساحة من الأرض الزراعية .

تتمايل الأشجار بدلال طولها مع تيارات الهواء التى تسمح بها تضاريس المكان . تبدو أكثر تباينًا عما يحيط بها من مزروعات . .بعض المصابيح تبعث أضواءً مرتعشة من بعض نوافذ المنازل البعيدة كأنها عيون ذبلت من كثرة سهادها انتظاراً لصباح طال غيابه . يُغمض عينيه بعد أن تعب من وقفته قرب النافذة يبتعد عنها ببطء ، وهو يردد مثلاً إيطاليا مشهوراً . . "ليس كل من يُغمض عينيه نائمًا" . يقف فى وسط الغرفة ، ثم يعود إلى النافذة بعد أن يفتح عينيه ليسدل الستارة ، حتى لا يعود للحملقة مرة أخرى فى جوف الليل الأكثر سواداً من إنسان عينيه . ينظر إلى ساعته القابضة على معصم يده اليسرى . . يدرك أن الليل يتهادى مع قرب انتهاء نوبة حراسته للكون ليسلم عهدته إلى فجر جديد . يهرش أعلى رأسه والنعاس يحثه على الاستلقاء فوق سريره المسكين . . .

(٢)

جلس بعد أن تناول وجبة الفطور – متأخراً عن عادته فى يوم إجازته – على أريكة كان قد ابتاعها من سوق قريب من القرية التى يعمل فيها فى المدينة المجاورة التى يؤمها سكان القرى المحيطة بها لشراء ماينقصهم من حاجات وأشياء لا تتوفر فى سوق القرية الذى يقام كل يوم اثنين من كل أسبوع – يعرض فيه القرويون منتجاتهم الزراعية من محصولات وألبان ماشيتهم ، إضافة إلى الأغنام التى يربونها بكثرة . تختلج جفونه وهو يلتقط بعض الصور التى سقطت من "ألبوم" قديم فى يده . تمدد على الأريكة بعد ذلك ، واضعاً كف يده اليسرى تحت رأسه متكئًا على مرفقه واضعاً إحدى الوسائد الصغيرة تحت المنطقة الممتدة من جسمه مابين أسفل الزند ونهاية القفص الصدرى . يضع الصور أمامه لفترة قصيرة ، ثم يعيد وضعها فى الألبوم حسب ترتيبها الزمنى على امتداد عمره من الصبا حتى كهولته تتزاحم فى رأسه ذكريات تتعلق ببعضها . يشعر بشىء من الصداع . . لكنه يتابع النظر إلى صورة صغيرة لتلك الصورة الكبيرة المعلقة على الجدار . والأخرى صورة لفتاة . . أكبر عمراً من الأولى تجمعهما صفة مشتركة . اتساع العيون التى تحيط بها رموش طويلة وأجفان خدرة . تشيع فى النفس الرغبة فى مواصلة النظر ، فتبدو ناعسة توقظ فى القلوب مشاعر عميقة تدعو إلى الارتباط ، والاقتراب منها بعفوية الحلم . . .

فتلتقى بها وتتشابك مع خلجات النفس فى ماضيها وحاضرها – تتخطاها وصولاً إلى اللحظة القادمة التى تتوحد فيها منابت العاطفة فى كلا الجسدين . عبر دفء الحياة المتدفق من التفاتة عابرة ، تحمل معها أعمق معانى الحب الرقيقة للطرف الآخر بإحساسه المرهف ، شاءت الأقدار أن تكون صاحبة الصورة الكبيرة رفيقة درب حياته . واحتفظ بصوره الأخرى ليعود إليها عبر خياله حين يشعر أنه يحتاج إلى بعض من أحاسيس يفتقدها

وهو يسير بصحبة الآخرين – فيبتعد بعض الوقت ، يحوم معها ناسياً بعض متاعبه التى تتولد مع ديمومة العيش مع الآخر – فى تلك الدائرة الضيقة التى تشيع فى النفس بعض تبلدها الذى قد يسيء إلى تلك العلاقة الدائمة التى ارتضاها بنفسه طوعًا واقتناعًا . لكنها الحياة دومًا تدفع الرغائب إلى الجديد ، البعيد عن الوصول إليه . كان يعتقد أن سفره مع الأخرى فى لحظات قصيرة عبر بحر ذكريات عابرة يريحه دون أن يكتمل دمجها فى واقع حياته ففقدت بريقها الذى يدفعه إلى تغير جلدها كلما شعر أن واقعه يضغط عليه فيلقى بعضًا من أثقاله بعيداً لتبدو حياته أكثر صفاءً ولمعانًا رغم مابداخلها . كما تبدو الأفعى زاهية بجلدها الجديد بعد أن تنضو عنها ماقد كانت ترتديه دون أن تصاب بأذى . هكذا كان يفلسف موقفه من الحياة بين واقع يحب له الاستمرار بقربها وبين هروب من هذا الواقع فى أوقات يشعر فيها أنه قد ضجر . فيهرب إلى الأخرى فى لقاء سرابى قصير.. هكذا سارت علاقته بها منذ أن تعرف عليها فى كلية التجارة . جامعة عين شمس . قرر بعدها أنها الأكثر قربًا منه ، رغم ماينقصها من مزايا بالمقارنة مع الأخرى ... لكنها كانت قليلة لم تؤثر كثيراً على علاقته معها .. وطالما عذبته تلك العلاقة مع الأخرى التى ساعدت ظروف الجوار على قيامها بعد أن سكن قرب شقتها . كانت موظفة – سبقته فى تجربة الحياة – تعرفت عليه حين حلمت أن يكون لها ، ساعدته بعد أن علمت ظروف حياته القاسية التى أخبرها بها . ارتبط بها اعترافًا بالجميل لرعايتها له بعيداً عن الأهل والصحبة .

كان اختيارها ... ارتضى ذلك . تدفعه مصلحته الراهنة متغاضياً بعض الوقت عن مكانته كرجل شرقى تشرب صفاته فى بيت أبيه – لكنه فى أعماقه ، ورغم استكانته لواقعه الجديد ، كان يتوق إلى من اختارها هو – راغبًا فيها لامرغوباً منها – لأنه كان يعتقد أن ذلك يجنبه بعض الملل الذى

قد يتسرب إلى حياته فيما لو ارتبط بها فى مستقبل أيامه . الذى قد يكون لو استفحل سبباً فى انفصال وشيك . . . ونظراً لحبه الجارف لوالدته فضل أن يختار أنثاه على شاكلتها . فكانت "وفية" زميلته التى كان يتابعها وهى تقف وسط زميلاتها فى فناء الكلية وهن يتحلقن حولها كبراعم أزاهير متباينة الألوان حول وردته البيضاء المتفتحة ، وهى ترتدى "فستانها" بألوانه الربيعية المتناسقة التى تنسجم مع لونها الفاتح الجميل – وكانت حين تراه قادماً وفى يده "نوتة" محاضرات ضخمة ، كان يحب أن يكتب فيها معظم موضوعات الدراسة تبتسم وتتسحب من بين زميلاتها . . تقترب منه بقلب خافق مفعم بغموض اللقاءات الأولى التى مازالت تبحث عن يقين المشاعر ، وحقيقة النوايا بينهما . . .والزميلات يتابعن خطواتها وهى تمشى بجانبه ، بعد أن أشار عليها أن يتجها إلى حديقة مبنى كلية الحقوق المجاور . قالت له بعد أن جلسا على أحد المقاعد الرخامية تحت شجرة لمياء :

– لقد تأخرت قليلاً .

– المواصلات ، تعرفين مشاكلها .

قالت وهى تنظر إليه :

– ولكنك تحترم مواعيدك .

– هذا صحيح . . دعينا من ذلك الآن . هل تتضايقين حين نجلس نستفيء تحت ظل هذه الشجرة التى شهدت معظم لقاءاتنا .

قالت بثقة واضحة :

– ألسنا داخل حرم الجامعة ؟

– لم أقصد ذلك ، وإنما وجودك معى .

– احمر وجهها . بللت شفتها السفلى بلسانها ثم قالت :

– لا أدرى ولكننى أشعر بأن الأمر عادى . إلا إذا كان لديك وجهة نظر أخرى .

- مادفعنى إلى ذلك إلا نظرة زميلاتك وأنت تبتعدين عنهن حين أتيت .

- ألهذا الحد تهتم بالتفصيلات .. ؟!...

- قاطعها قائلاً : لأن ذلك يتعلق بك .

- قد تكون نظرتهن فيها بعض الغيرة عندما يشتهين أن يكن مع طالب متفوق مثلك ... نظرت إليه فنفذ البريق الدافئ من عينيها إلى قلبه . فلم يعد لديه مقاومة لسحرها عليه . أثارت كلماتها فى نفسه غرور الشباب . فأعطته شحنة من الاعتداد بالنفس والطمأنينة بأنه فتاها الذى تُحب - وأسَّر لنفسه أن يبقى مميزاً بلا تكبر وذلك بمزيد من الاجتهاد للحفاظ على تفوقه لكى يبقى الإعجاب بينهما - وفى غمرة إحساسه هذا مد يده إليها مصافحًا ليعرب عن شكره لها بطريقة مسرحية .. مما جعلها تضحك وهى تقول : يبدو أنك تحب التمثيل .

- إلى حد ما ، ولكن ليس فى الحب ..

شعرت بشيء من الغيرة وقلبها يخفق بالحب وخشيت أن تخطفه أخرى منها ، ثم نظرت إليه بإعجاب يشع من عينيها الكحيلتين واكتفت بهز رأسها ...

(٣)

أين هى الآن ؟؟ لم يرها منذ أن سافر إلى تلك القرية . بعد أن حملته الدنيا بعيداً عنها . يسكن فى بيت كأنه القبر فى جبّانة كبيرة .. تولدت فى داخله عاطفة حُبلى بقمر ظامئ إلى الضياء فولدت له أحلامًا فاقدة الهوية . أحلام الصبا والطموح عبر درب مليء بأشواك كثيرة تحت شمس الغربة والبحث عن الأفضل - قرب بوابة مطار كبير لا يختلف كثيراً عن غيره من المطارات التى حملته إليها طائرات تتنافس على نقله من مكان إلى

آخر ، قُرب الواجهة الزجاجية الممتدة تحت إعلانات "القادمون" من جهة و"المغادرون" من جهة أخرى .. يتذكر أول مرة سافر فيها بالطائرة – كان يشعر أنها مغامرة حقيقية وفي يده حقيبته ، تضم كل ما يملك : جنيهات قليلة يحتاجها في البلد البعيد ريثما يتسلم أول راتب كبير راوده في أحلامه العريضة . وفيها شهادة "البكالوريوس" داخل ظرف كبير اشتراه خصيصًا لها ... وقبل أن يدلف إلى صالة المغادرين ودع زملاءه وبعض الأهل القليلين الذين بقوا بعيداً عن منجل ملك الموت ، فلم ينتبه إلى وجودهم فبقوا على وجه البسيطة إلى حين ... تابعته – وهو يمشي بطيئًا ملوحًا بيده – كلمات التوديع والتشجيع من أفواههم . استرعت انتباهه نظافة المكان في المطار الذي يدخله لأول مرة في حياته – بهرته "الكافتيريا" الممتدة قرب واجهة زجاجية ضخمة تطل على مدارج المطار . اتجه إليها .. جلس وطلب كوباً من الشاي مشروبه الساخن المفضل. أحضره نادل بملابس زرقاء مزركشة الجوانب بلون أصفر .. لم يفكر بثمن الشاي في هذا المكان الأنيق الذي يستطيع أن يشاهد منه بعض الطائرات المختلفة الأحجام بهذا العدد الكبير الذي لم يره من قبل جاثمة على أرضية المطار الشاسعة . تحسس عينيه ، مازالتا ملتهبتين – فالدموع التي سقطت منهما حين ذهب لوداع وفية خطيبته كانت كافية لانتفاخهما ، فآثر أن يضع نظارته الشمسية وهو يودع الآخرين .... لم تتحمل الفراق – كان صعبًا عليها أن تستسلم للواقع – سوت شعرها القصير الفاتح ، وعلامات استفهام تتموج على صفحة وجهها بتقاطيعه المتناسقة . توردت وجنتاها وعلت حمرة بياض عينيها الواسعتين – وقالت بأسى :

لماذا أخفيت فكرة السفر عني ؟؟

قال بلهجة مطمئنة :

لم أتوقع أن يكون بهذه السرعة .

تجهمت وقالت :

– أرجو أن تقلع عن فكرة السفر هذه – وبدأت عيناها الجميلتان تدمعان .

– كيف ؟ لا أستطيع ، لقد تم كل شيء .. قالها بنبره حازمة توحي بالتصميم على السفر .

قالت بعد أن مسحت دموعها :

– لا أتخيل الدنيا بعيداً عنك .

– السفر لمصلحتنا وهو فرصة لتحسين وضعنا المادى ، ثم إننى لا أستطيع أن أجعلها .. تفوتنى وأبقى بعدها بدون عمل هنا .

– إنك لم تبحث بصورة جدية عنه هنا .

– المرتبات هنا ضئيلة .

– تكفى .. لن أطلب شيئاً فوق طاقتنا بعد الزواج .

– أعرف ذلك ، ولكن الاستمرار أمر لا يُحتمل .

– صدقنى وجودك أغلى من أى شيء.

– الحياة مع الفقر جحيم . الجوع يُميت الحب ويجعلنا نحزن ، وقد نفقد طباعنا الهادئة .

– القليل معك كثير ..

– العواطف لا تسدد الديون .

– قلبى يعتصره الألم . أرجوك لاتسافر . أين التذكرة ؟

– اسمعى ، إن للحياة حاجاتها الضرورية وقد تكون قاسية على القلب، لكن لابد من الخضوع لها لكى تستمر .

أخرجت منديلاً صغيراً من جيب "روبها" ومسحت دموعها بعد أن زاد انهمارها ، حين أدركت عبث محاولتها لتثنيه عن السفر وقالت :

– إنكَ جزء من هذا العالم الذى لا يقتنع بجدية عذاب الآخرين .. إلا

بعد فوات الأوان .

- لا أستطيع أن أسعدك وأنا لاأملك شيئًا .

- إننى مقتنعة بك ، فأنت الذى أعطيت لحياتى معناها الجميل .

احمرت عيناه وأخذ يبكى مشاركًا دموعها وقال بصوت تخنقه العبرات :

- لا أكون شيئًا إلا من خلال عمل يكفل لى تحقيق بعضًا من أمانينا . فالأحلام لا تصنع الواقع .

أشاحت وجهها بشىء من الدلال لتخفى تعبيراته الحزينة . حان وقت ذهابه إلى المطار فموعد إقلاع الطائرة يقترب . يودعها ، يزداد بكاؤه ، يمسح بعض الدموع التى لم يستطع كبحها فالموقف جديد عليه وأحاسيس جديدة تولدت مع قرب الفراق .. أخذت ترجوه أن ينتظر قليلاً وهو يخطو نحو باب الخروج . ومع كل خطوة تقف أمامه لتمنعه من التحرك وتمنع خروجه . لكنه أبعد يديها برفق .... وأهلها واقفون واجمون يراقبون كل شىء . ودعها وقلبه يعتصره ألم شديد .

فى الطائرة مجموعة من الشباب يمرحون ويتفقدون مفاتيح وأزرار استدعاء المضيف والموسيقى . تتكرر محاولاتهم ، يأتى أحد المضيفين ويطلب منهم بطريقة مهذبة أن يكفوا عن ذلك .. لكنهم استمروا فى اكتشاف مايحيط بهم فى مقاعدهم فهذه أول مرة يسافرون فيها بطائرة كبيرة حديثة – يعلو صوتهم حين شاهدوا مضيفة جميلة أمامهم تعطى تعليمات عن كيفية التصرف فى حالة الطوارئ . مسحتها عيونهم عدة مرات . لم ينتبهوا إلى ماقامت به فلم يخطر ببالهم أن يحدث مكروه وهم على متن طائرة "بوينج" حديثة . أفقدهم شبابهم حكمة الزمان – أما هو فقد جلس فى مكانه قرب إحدى نوافذ الطائرة . لحظات وبدأت الطائرة فى الإقلاع امتقعت الوجوه المستبشرة بالسفر . وزاد وجيب القلوب خوفًا ،

والطائرة تزيد ارتفاعها ، تشبثت الأيادى بالمقاعد ، وران سكون مهيب على الجميع ،دفع المضيفة الواقفة أمامهم أن تبتسم وهى تشاهد الجميع وقد هدءوا واستكانوا .

أخذ يراقب المدينة الكبيرة من النافذة وهى تتدرج فى انكماشها كلما ارتفعت الطائرة فبدت البنايات صغيرة جداً والشوارع الواسعة خيوطاً دقيقة، إلى أن دخلت الطائرة السحاب فتخيل أنه فوق بساط كبير من القطن "المندوف" . مـــضى الوقت وحطت الطائرة فى مطار طرابلس الغرب.. كان المطار قديمًا بالمقارنة بمطار القاهرة التى أقلعت منه الطائرة فى ذلك اليوم من سنة ١٩٧٢ .. انتهت اجراءات الدخول بسرعة .. ينتقل مع زملائه إلى إحدى البنايات الخاصة للمؤتمرات الكشفية بسيارات حكومية.. هناك اختار مكانًا للنوم فقد نال منه التعب . استلقى على سرير من "دورين" . يكلمه أحد الزملاء ، لكنه تجاهل الاستمرار فى التواصل معه، وفضل أن يلوذ بالصمت ، وفكره مشغول بـ"وفية" ... ثم انتقل بأفكاره إلى الأخرى ، وكيف أنه لم يتمكن من توديعها ؟ رغم أنها أصبحت بالنسبة له مجرد علاقة ما ، كما أفهمها فى آخر لقاء معها فى "جروبى عدلى" حين سألته كيف قضى ليلته السابقة على موعدهما هذا ! فقال :

– لقد نمت متأخراً عن موعد نومى المعتاد .

فاجأته بسؤال لم يكن يتوقعه حين قالت :

– ألاتريدننى الآن ؟؟

قال بتردد :

– الهموم تطرد المتعة فى الحياة .

– وهل أنا من تلك الهموم ؟ وإن كنت ، فأين موقعى ؟؟

– قد تكونين أحدها لو .. لم يكمل وانشغل بعلبة "سجائره"

– لو ماذا ؟؟ قل . إننى سأرضى مهما كانت النتيجة .

– لو تطورت علاقتى بك أكثر .

– وهل فى ذلك مشكلة ؟؟

– بالطبع فأنت تعلمين بعلاقتى مع وفية ..

– هل تنوى الزواج منها ؟؟

– أتهتمين بالإجابة ؟؟

– كامرأة . نعم ..

– لماذا ؟ "أشعل سيجارة" دون أن يدخنها .

– لأنها ستأخذك منى .

– لقد خطبتها مؤخراً .

نزلت كلماته عليها كوابل من الرصاص ، ثم قالت بانفعال واضح :

– هل تحبها؟ حقًّا !!!

– بالتأكيد وإلا ماأقدمت على الارتباط بها .

– هل هى تحبك ؟؟

– ربما . لمست ذلك من معاملتها لى .

– هل سيتم كل شيء قريباً؟ أقصد هل ستتزوجها فعلاً ؟؟

– تحدثنا فى ذلك واقتنعنا وخطبتها كما أخبرتك قبل قليل .

– أنت تعرف أننى أغار منها .. وضعت يدها على كفه النائم على الطاولة أمامهما ..

فرد مسرعًا بعد ذلك وهو يقول :

– إننى آسف لا أحب أن أكون السبب فى عواطف حزينة . فلست على يقين مما سيحدث .

كاد أن يخبرها عن نيته فى السفر لكنه أرجأ ذلك إلى وقت آخر – وطلب منها أن لا تضعه فى اعتبارها ، وتركها وذهب وفى نيته أن يودعها .

لكن السفر داهمه مسرعًا . مازال يذكر صوتها وهى ترجوه أن يبقى قليلاً .
كان صوتها يرتعش قليلاً .. كافيًا لأن يفهم أنها تريده . شعر بالذنب
نحوها .. لأنه جحد جميلها .. فهى هناك الآن تعودها الذكريات . فلم
يكن لها ماضٍ يشده إليها ولا مستقبل يرجوه معها . كانت امرأة دافئة ..
مقبولة ومرغوب فيها – تثير شهوته . لم يكن يشعر نحوها بأى شعور كما
هو عليه الآن ، وهو ممدد على السرير العلوى قريبًا من سقف الغرفة
الساخن. وصورتها يستعيدهاخياله وكلماتها ترن فى أذنه ، حين قالت له
فى إحدى المرات وهى تهمس له : أحبك . أعرف أن ذلك جنون فى كل
شىء ، لكننى أحبك على أية حال – ثم خَفَتَ صوتها بدرجة كبيرة لكنه
استطاع أن يسمعها وهى تواصل كلامها : .. "لم أقل ذلك من قبل" .. ثم
صمتت وبدت كلمات كل اللغات خرساء فى تلك اللحظات لأنها ستكون
بلا معنى ... جوفاء ومبتذلة .

(٤)

ذهب فى الصباح إلى الإدارة العامة ، لكى يعرف أين سيكون مقر
عمله، وحين وصل وجد عدداً كبيراً من الناس والزملاء يقف فى طابور غير
منتظم أمام نافذة صغيرة . وبما أنه لايحب الزحام أو الانتظار الطويل فقد
شعر بالضيق لأنه سيضطر إلى ذلك . أخذ يستفسر من بعض الزملاء الذين
كانوا معه فى الطائرة عن سبب هذا التزاحم أمام تلك النافذة الصغيرة أدرك
بعد ذلك أن الموظف المسئول يعمل ببطء شديد كانت حرارة الجو عالية .
بدأ يبحث عن منطقة للظل يقف فيها ريثما يخف الزحام قليلاً ...

يمضى الوقت ويقترب من النافذة يتسلم منه الموظف الأوراق المطلوبة
ويطلب منه أن يأتى صباح الغد ويتجه إلى شباك رقم "٧" ليأخذ من هناك
أمر إركاب إلى الجهة التى ستحددها اللجنة المختصة بذلك .. سأل الموظف

إن كان السفر سيكون بالطائرة أم .. قاطعه .. وقال له :

– بالحافلة . فأيقن أن المكان الذى سيعمل فيه سيكون قريبًا طالما أن السفر بالحافلة . . .

يعود إلى نفس المكان بعد انقضاء الليل ومجىء صباح جديد . يأخذ "أمرالإركاب" ويعرف أن مكان العمل سيكون فى منطقة سبها . استفسر عنها فقال له بعض الذين ينتظرون دورهم لأخذ "أمر إركابهم" أنها تبعد حوالى تسعمائة كيلو متر . شهق، وتملكته رغبة أكيدة ، أن يرجع إلى مصر ليتخلص من عذاب السفر فى هذا الطريق الطويل الذى لم يتخيل أبداً أن يطويه فى حافلة وعندما تذكر ماوعد به خطيبته عدل عن ذلك واستسلم لحياته الجديدة بروح التضحية ، حتى لو كان ذلك على حساب راحته . .

بعد ساعات طويلة من السفر والتوقف فى استراحات هزيلة فقيرة وصلت الحافلة إلى سبها – تلك البلدة التى تتوسط صحراء جنوب ليبيا – ورغم أنها كانت تعتبر عاصمة منطقة فزان ، إلا أنها كانت مكانًا موحشًا على مرمى النظر ، بمنازلها القليلة المبعثرة هنا وهناك فى أحياء صغيرة تحيط بها بعض الجبال البعيدة التى بدت وكأنها تحرس المكان . بعض المبانى قديم جداً وبعضها يقترب من الطراز الحديث للبناء . . هناك سأل عن المركز الاجتماعى فأخبروه أنه على بعد عشرين كيلو متراً فى قرية "القُرضة" . انهار تمامًا ، فقد كان يظن أن آخر مطافه سبها فإذا هو فى مكان آخر وأن عليه أن يستقل إحدى سيارات الأجرة . أشاروا إلى سيارات قديمة . . "بيجو فرنسية" أشبه بنعش متحرك . . حمل حقيبته واستقل إحداها وطلب من السائق أن يوصله إلى المركز الاجتماعى فى "القُرضة"كان الوقت عصراً والدوام الرسمى للعاملين الحكوميين قد انتهى منذ ساعات قليلة . تتوقف السيارة وصوت مكابحها يصم الآذان أمام بناية حديثة نوعًا . معلق على بوابتها لوحة بخط ردىء "المركز الاجتماعى لمنطقة سبها" .

نزل من السيارة يحمل حقيبته ووقف أمام البوابة حائرًا تلفت حوله . ماهى إلا لحظات حتى تجمع بعض الأهالى . وكانت هذه عادتهم حين يشاهدون وافداً جديداً بلباسه المختلف عنهم شعر ببعض التوجس فقد كان لونهم داكنًا لم يتعود عليه . اقترب منه أحد الرجال ، ضخم الجثة ، ذو لحية.ضاربة إلى الاحمرار . أدهشه لونها . . . عرف فيما بعد أن الرجال هنا يخضبون لحاهم بعد أن يغزوها الشيب بالحناء . طلب منه بلهجة تخلو من المجاملة . أن يأتى معه إلى مجلس القرية العام . حتى يحصل على مسكن قريب من مكان العمل . عرف أن الرجل ، هو "مختار المحلة" كما يطلق عليه الأهالى فى هذه القرية . ذهب معه بعد أن اطمأن قليلاً . وقضى ليلته، بعد أن تناول عشاءاً مكونًا من التمر وبعض الخبز المصنوع من الذرة يطلقون عليه "فتات" وكوبًا من الشاى الثقيل جدًّا والمشبع بالسكر ، وبعد أن تذوقه شربه دفعة واحدة حتى لا يعذب نفسه أكثر من مرة فقد كان شايًا غريبًا ، لكنه لم يستطع أن يعتذر عن تناوله خوفًا من أن يسىء إليهم وهو الغريب بينهم ، إذا رفض ماقدموه له . . .

فى اليوم التالى يدخل مبنى المركز الاجتماعى الذى يتكون من ثلاث غرف متوسطة الحجم ، وصالة كبيرة فى الوسط ، ومخزن فى الجهة المقابلة للبوابة الكبيرة المطلة على الطريق الرئيسى فى القرية – استقبله أحد الموظفين ، طلب منه أن ينتظر المدير المسئول الذى حضر فى نفس اللحظة . بسيارة جيب . نزل منها بملابسه الوطنية الفضفاضة . على رأسه قبعة يجللها شال أبيض من الصوف الخفيف . كان رجلاً طويلاً أسمر البشرة . وبعد أن دخل المكتب تبعه وحيد وفى يده خطاب التعيين . قدمه له. رحب به المدير وهو يتوسط المكتب بأثاثه البسيط . أخذ يزوده ببعض النصائح الخاصة بالتعامل مع الأهالى البسطاء الذين لم تدخل عليهم ألفاظ المجاملات العصرية ، فهم مازالوا على طبيعتهم الفطرية بكلامهم الواضح

الخالى من الزخرف أوالتنميق الذى يميز كلام الحضر فى تعاملهم . وطلب منه أن يتحلى بالصبر ويتحمل تصرفات بعض المراجعين الذين يأتون من أماكن بدوية بعيدة لأن عمله كمحاسب يجعله أكثر احتكاكًا بهم وقال له أن عمله قد يخلو من التنويع أو المشاكل . وإن صادفته مشكلة من أحدهم فليرجع إليه لأنه يعرف معظم أفراد "المحلة" ومايجاورها . دخل "الفرّاش" أثناء حديثهم وفى يده كوبين من الشاى الثقيل – تذكر ماحصل فى الليلة الماضية . ارتعشت معدته واضطربت . تناول كوب الشاى ووضعه على منضدة صغيرة أمامه .. تجاهله فيما بعد .. وهو يستفسر من مدير المركز عن السكن وكيفية المعيشة وسبل المواصلات وبعض طباع الناس . كان المدير لطيفًا أنيسًا وقال له: "لقد رتبت لك كل شيء من سكن وخلافه بعد أن علمت بقدومك من المركز الرئيسى فى طرابلس . بعد الدوام سنذهب إلى مسكنك ولكن بعد أن نتناول طعام الغذاء فأنت اليوم ضيفى."

مضت أيام العمل الأولى مريحة ، بسيطة على غير ماكان يتوقع وحيد . كل ماعليه أن يتفحص الأوراق أمامه ويتأكد من توقيع المدير عليها . كانت جميعًا تتعلق بالمساكن أو الإعانات ، وبعدها يستطيع أن يفتح "الخزنة" التى ترقد بجانبه، ويصرف لهم المبالغ المطلوبة . حتى هذا العمل ليس فى كل الأوقات ، مما يوفر له وقتًا كافيًا للاطلاع ، فاتفق مع أحد السائقين أن يأخذه إلى سبها حيث توجد مكتبة يديرها "لبنانى" تتوفر فيها بعض الكتب والمجلات والدوريات والصحف وذلك فى يوم الجمعة . العطلة الأسبوعية . بعد صلاة الجمعة لأن كل المحلات تكون مغلقة قبل موعد الصلاة وتُفتح بعدها . يتخلص من الفراغ الكبير والملل بقية ساعات اليوم ، فليس لديه مشاكل مواصلات ولازحام عمل . إلا فى يوم السبت فقط ، مع بداية كل أسبوع ، حيث يتوافد عدد أكبر من المناطق المجاورة للمراجعة واستلام ما يُقرر لهم . هكذا مضت أيامه بين العمل والبيت والاطلاع ، إلى

أن جاء موظف جديد احتاجه المركز لبحث الحالات الاجتماعية للمراجعين وكان طبيعيًا أن يسكن مع وحيد طالما أنه غريب مثله وكان اسمه رفيق . . شاب متفتح للحياة هكذا بدا لوحيد حين قدمه له مدير المركز ، وطلب منه أن يساعده ويعرفه على المكان بعد أن أصبح خبيراً "بالمحلة" إلا أن رفيق لم يكترث لذلك وقابل كلام المدير بشيء من اللامبالاة لأن كل ما يهمه هوأن يرتاح من عناء السفر. انزعج وحيد في البداية . فهو لايحب أن يشاركه أحد في مسكنه . . لأنه يعتبره من الخصوصيات التي يجب أن تبقى ملكًا خاصًا له . لكن الموقف لايسمح له بالاعتراض رغم وجود غرفة شاغرة . استأذن وحيد المدير وذهب مصاحبًا رفيق إلى البيت . وفي الطريق حدثه عماحصل معه في السفر . كان ماحدث لايختلف كثيراً عما حصل لوحيد في رحلته "البطوطية" إلى "محلة القُرضة" . وعلم أن رفيق من حيفا إحدى مدن الوطن شمال مدينته يافا ، فاطمأن إليه بعد أن زاوجت الغربة بين وجهات نظر كليهما فيما يتعلق بالوجود والعالم ومافيه من متغيرات ومتناقضات اتضحت أثناء حديثهما مع بعض قبل أن يستغرق رفيق في سبات عميق لايخلو من الشخير .

***

الغربة والاستمرار بعيداً عن الوطن ، الشتات هنا وهناك انتظاراً لعودة طالت بحكم الظروف الصعبة الخارجة عن الإرادة الذاتية . فمعطيات الواقع تعمل عكس تيار الأماني . حاول وحيد أن يتكيف مع هذا الواقع بالضغط على تمرده الداخلي لينساق مع خدر الألفة والعادة كما يفعل الآخرون في شتاتهم من أبناء وطنه فلسطين . كان يلحظ موت أمانيهم قبل أن تولد . كل ما يهم سعيهم ، وراء المال والمظهر بدلاً من العمل على تغير واقعهم بصورة أو بأخرى ، أو التزود بالثقافة والعلم والتمسك بكرامة الإنسان قبل

رحيلها فى غياهب الوضع الراهن فى رَوْبة ليل الزمن الردىء الذى تشيع فيه سرقة الحقوق وإلغاء الهوية .

(٥)

فى أحد أيام الجُمَع . . وحيد يستعد للخروج فى هذه الساعة المبكرة من النهار رغم أنه إجازة . . خطر بباله أن يوقظ رفيق الذى يبقى نائمًا فى هذا اليوم إلى قرب وقت الصلاة ، إلا أنه توقف عن التمادى فى الفكرة وترك صاحبه نائمًا حتى لا يزعجه لأن خروجه فى هذا الصباح كان مفاجئًا ولم يُخطط له ، حتى يخبر رفيق . وقبل أن يخرج ترك "ملحوظة" يخبره فيها أنه سيتوجه إلى الجبل القريب من القرية وهوأكثرها ارتفاعًا وضخامة . استقل سيارة وفرتها الدولة للموظفين حتى يسهل متابعة بعض الحالات فى المناطق البعيدة . فى بعض الأحيان . إذا دعت الضرورة . . وكان قد استعملها قبل ذلك للتنزه ولم يعترض المدير ، بما أن العمل لايحتاجها فى أيام العطلات . كان الجو لطيفًا . بعض الغيوم تظهر فى الأفق خلف الجبال التى تحيط بالمكان . وحيد يقود السيارة عبر الطريق المتعرج الذى تحيط به بيوت القرية المتناثرة بلا نظام حول حقول صغيرة محصورة بين تلك المنازل، والطريق يقترب من الجبل الكبير الذى يبعد حوالى ثمانية كيلومترات عن القرية يقف عند السفح لم يشعر بشىء وهو يخرج من السيارة ولم يحصل له شىء كما أخبره بعض الأهالى بأن الجبل مسكون وأن من يقترب منه تصيبه قشعريرة ويمرض بعدها لعدة أيام ولايشفى من هذا المرض الخفى إلا إذا ذهب للشيخ "أبوجلهم" — وكان هذا اسمه الغريب على مسامع وحيد وغيره من الوافدين الجدد — لكى يكتب له "حجاب" يضعه تحت إبطه الأيسر قرب قلبه . أجال النظر يتفحص المكان محدقًا معظم الوقت . لم يكتشف جديداً . أشجار شوكية وبعض نباتات جبلية تعلو سفح الجبل

هنا وهناك بقايا مبان قديمة مهدمة عند حضيضه تحيط بمقبرة القرية . تقدم قليلاً واقترب أكثر من المقبرة ، لم ير شيئًا مما ذكر له أحد الفراشين فى المركز الاجتماعى عن حيوانات مفترسة مثل النمر والقطط الوحشية وبعض الذئاب وكثير من الهوام والزواحف .. تظهر أحيانًا فى النهار بحثًا عن فريسة . وأن أغلب ظهورها يكون ليلاً ، وحذره أن لا يذهب إلى مكان الجبل . لكن حب وحيد للمغامرة دفعه إلى ارتياد المكان ليقف على حقيقة مايقولون من سماع أصوات تدخل الرعب فى القلوب وظهور بعض ومضات من النور المتقطع كأنه نجوم صغيرة فوق بعض مناطق الجبل . تطلع وحيد إليه وهو يتفحص سفوحه القريبة والشمس تسطع على قمته . بدا فى شموخه كعملاق على رأسه عمامة ضخمة فأحس برهبة المكان فى داخله وأخذ يتأمله دفعة واحدة . لاحظ آثار تعرية الرياح بادية بوضوح على الصخور الرخوة . فبدت كمظلات ضخمة تمتد لعدة أمتار فوقه . واكتشف أن الهواء عبر بعض الفجوات المحيطة بالمكان يحدث صوتًا أشبه بالصفير أو العواء البعيد ، إذا اشتد بعض الشيء . ورأى أعدادًا كبيرة من الغربان يتعب بعضها حين يبدأ الطيران إلى جهة أخرى فتحدث ضجيجًا مشئومًا يوحى بإلغاء الحياة وحين تتجمع قرب بعضها يبدو المكان الذى تقف عليه أسود كظل الليل . توقفت الأغربة عن الصياح فجأة حين هدأ الهواء وسكنت حركته وساد صمت كئيب لف الجبل كله .. صعد وحيد أكمة قريبة من المقبرة ، عليها أثار مبنى قديم على هيئة قلعة صغيرة . تقدم بصعوبة نحوها لأن الصخور تحت قدميه لم تكن متماسكة بسبب تباين درجات الحرارة مابين النهار والليل فى هذا المكان الصحراوى ،مما ساعد على تفتيتها وتشققها .. إضافة إلى طبيعتها الرسوبية الرخوة . وحين اقترب من مدخل القلعة طارت بعض الخفافيش فجأة فأوجسته . وخاف لفترة قصيرة إلا أن دافع المغامرة والفضول وشهيته المتزايدة للتجارب الغريبة جعلته

يستمر فى استطلاع المكان . كانت الأرض داخل القلعة مغطاة برمال ناعمة لاأثر للحياة عليها سوى آثار أرجل بعض الطيور . أقدامه تغوص قليلاً فى الرمال . الجدران المتبقية مبنية من قطع من صخور الجبال القريبة منها . . كان وسط القلعة مربعًا تحيط به بقايا غرف صغيرة مستطيلة سقط سقفها . لاحظ وجود فراغات مختلفة المساحة فى الجدران السميكة واستنتج أن تكون بمثابة أرفف لوضع بعض الأشياء الخاصة . وحين اقترب منها وجد بقايا قطع من الفخار والزنك يعلوها الصدأ . استرعى انتباهه بعض الرسومات المحفورة على صخور الجدران التى بقيت قائمة تقاوم عوامل التحات والتعرية المختلفة عبر الزمان البعيد . معظمها صور لحيوانات تشبه الفيل والثيران . يحتفظ بعضها بألوان باهتة أغلبها من الأحمر والأسود والأزرق . شاهد على أحد الجدران الأخرى . رسمًا يشبه اللبؤة الجريحة التى شاهدها وقرأ عنها فى أحد الكتب عن الفن العراقى فى الفترة التى ساد فيها الأشوريون . وتعجب لذلك وتساءل هل وصل الأشوريون إلى هذا المكان ؟؟ تفحص النقوش المتبقية أسفلها لم يعرف شيئًا . رغم أنها أشكال هندسية دقيقة وخطوط متداخلة كثيرة . أجهد نفسه وهو يحاول أن يفك طلاسمها . أقلع عن ذلك واتجه إلى مصطبة فى إحدى زوايا القلعة عليها بعض العظام والجماجم. نظر إليها وأدرك أنها تعود إلى زمن بعيد قد تكون لبعض الناس الذين سكنوا المكان فى ذلك الوقت . فالعظام رميم بالية . أما الجماجم فكانت أكثر تماسكًا . سليمة بعض الشيء شعر ببعض الغثيان وهو يتفحص جمجمة واسعة المحاجر وأسنانًا صغيرة متآكلة . ألقاها وأحس أن المكان يغتاله وأنه سيغوص فى رحم الأرض – حك مؤخرة رأسه وهو ينتقل إلى انحناءة مجاورة بجانبها بعض سلالم حجرية من الجير "المتكلس" تؤدى إلى مكان أكثر ارتفاعًا قد يكون إلى سطح القلعة المهدم حاليًا واستغرب كيف نجح الزمان فى تقويض هذا البناء بجدرانه السميكة الصخرية التى

يصل عرضها إلى أكثر من متر . سرقهُ الوقت فالمكان يحتاج إلى مزيد من الساعات . لا تكفى زيارة واحدة لاكتشافه والوقوف على كنهه ، لمعرفة تلكْ القصص الأسطورية التى نُسجت حوله من جيل إلى آخر ، كل يضيف إليها بالقدر الذى تأثر به . وحسب تلك التفسيرات الغريبة التى صاحبته . إلى أن استقرت على ما يسرده أهالى المكان على مسامع وحيد الذى أدار محرك السيارة فى طريق عودته إلى البيت ، ووقت الصلاة يقترب فى هذا اليوم «الجمعة» الذى له مكانة كبيرة فى القلوب فهو اليوم الذى خلق الله فيه آدم "أبو البشر" . كانت فى رأسه أفكار كثيرة تختلف عما سمعه . وقرر أن يرجع إلى الجبل مرة أخرى ويصطحب معه رفيق الذى يحمل شهادة جامعية فى علم الاجتماع و"الأنثروبولوجيا" وقد يكون مفيداً لوحيد ، لإعطاء مزيد من المعلومات عن المكان ، حين يشاهده على الطبيعة، أفضل من الاستماع والحديث عنه . ثم إن الصحبة فى الخلاء المقفر تخفف من الهواجس والمخاوف المصاحبة .

دخل وحيد المنزل القديم الذى يشبه المبانى الأثرية قرب الجبل . ورفيق مازال فى ملابس النوم ولما رأى وحيد حيّاه ، وسأله إن كان قد تمتع بجولته المفاجئة جوار جبل "أبو محرز" كما كان يُطلق عليه سكان المنطقة وقال بعد ذلك :

– لقد خرجت فى وقت غير مناسب فى الصباح الباكر .

– لقد دفعتنى رغبة ملحة بعد أن ناوشتنى الأقاويل عن ذلك الجبل اللغز

صاح رفيق محتجًا والدهشة بادية عليه :

– أخبرنى أيها المكتشف العظيم . ماذا شاهدت؟؟

– قال وحيد بهدوء : بعض الآثار تحيط جبل "أبومحرز" .

– أبو محرز رئيس قبيلة "مالوط" الخرافية كما سمعنا ، أتؤمن بهذه الخرافات .

– دفعني حب الاستطلاع من كثرة ماسمعت عنه . وأود أن تصاحبني إلى هناك في المرة القادمة .

– أعفني أرجوك .. لا أحب الخرافات . . .

– لن تخسر شيئًا .. يمكنك البقاء في السيارة . وإن حصل لك شيء سآخذك إلى أبي جلهم . قال العبارة الأخيرة وهو يضحك .

– أتعرف معنى جلهم يا . . . . .

قاطعه قائلاً :

– الصخرة الضخمة .

– تمنيت لو أنك لا تعرفها ، لأعطيتك تفسيراً أخبرني به أحدهم .

– ماهو ؟ لاتحاول التهرب . لم يجب رفيق وقال مازحًا :

– لا عليك سأرافقك المرة القادمة . من أجلك فقط "يا روبن هود" .

– لا تبالغ .. إنني أعشق غرائب الأماكن التي يُغلفها الغموض .

– بل تعشق المغامرة لتعرف غوامض الأمور وأسرارها رغم المخاطر .

– الحياة كلها مغامرة .

– تتكلم بمنطق الشيوخ ، وأنت في شرخ الشباب .

– لقد أنضجتني همومي ورحيلي إلى هذا المكان .

– ولكنك أتيت إلى هنا بمحض إرادتك .

– يتهيأ لك . . . الظروف اضطرتني فالحرمان بلية .

– إنه يُنضجُ الحواس ، كما تعلمت في الجامعة .

– وهل التعلم يتوقف عند مرحلة معينة إنه عملية مستمرة .

– لم أقصد . أعرف من الفترة التي قضيتها معك أنك قارئ جيد

– لا داعي للمبالغة . حظك التعيس رماك بجانبي .

– في الواقع يا عزيزي ليس هناك حظ كما يُشاع . ولكن هناك آلية تدفعنا من دواخلنا بطريقة لا واعية نحو النجاح أو الفشل .

- كفى . لا أريد فلسفة فى هذا الوقت الذى تتصارع فيه أمعائى طلبًا للطعام . ماذا أعددت ؟؟ إننى خرجت دون أن أتناول شيئًا .

- أمامك المطبخ . بعض المعلبات وقليل من الجبن الأبيض والزيتون فأنت تعرف أننى لا أُحسن طبخ أى شيء .

- تعوَّد . لاداعى للكسل .

- إنك صريح ، بدرجة مقلقة .

- واقعنا ، بعيداً عن الأهل يجبرنا على ذلك .

- ياترى . ماذا كان سيحدث ؟ لو أننا تقابلنا منذ فترة ، فيما غير هذا المكان .

- لا شيء أكثر مما نحن عليه الآن "يازلمة" .

- تذكرنى بلهجة الأهل فى الوطن فكلمة زلمة لم أسمعها منذ أن تركتهم .

- لا تختلف كثيرًا عند بعض القبائل هنا ، يطلقونها على الوعل الكبير. يدلفان معًا إلى المطبخ . يُحضران طعامًا لا يشجع على فتح الشهية . .

(٦)

يخرجان إلي الجامع الكبير والوحيد فى البلدة . . بناء قديم تعلوه مئذنة متوسطة الارتفاع فوقها هلال مصنوع من النحاس الأصفر . يسيران وهما يتحدثان عن الناس هنا ، فيقول وحيد : يبدو أنهم يعشقون القديم فى كل شيء . يقاطعه رفيق ويقول : إنها عادة عربية قديمة ، فقد قال لنا أحد أساتذتنا : إن العرب ينعطفون على الماضى فى مفهوماتهم للحياة الاجتماعية فيما بينهم ويتأففون من الجديد الوافد إلا فيما ندر ، خاصة العُرف الذى ساروا عليه .

- أظن أن الأمر أبعد من ذلك بكثير . انظر مثلاً إلى "موديلات" السيارات تجدهم يحبون القديم منها ويمتدحونه ويذمون الجديد .

- أوافقك على ذلك فهذا موجود في كثير من مناحي حياتهم في أبنيتهم وطريقة تعاملهم . الشيوخ تنتقد الشباب حين يرتدون "البدلة" أو السراويل والقمصان ويستهجنون ذلك .

- حبهم للقديم نوع من العشق أفقدهم القدرة على التطور أو حتى الحكم السليم القائم على الممارسة والتجريب .

- أخبرني المدير أن مبعوثًا من وزارة الأوقاف جاء مرارًا من أجل بناء مسجد جديد ويعود دون تحقيق ذلك .. يخبره مختار المحلة أن الناس هنا لايرغبون بتغير مسجدهم القديم الذى بناه أجدادهم وأباؤهم رغم أن مساحة كبيرة منه عبارة عن سقيفة كبيرة ...

يصلان المسجد يأخذان مكانًا بين المصلين والإمام مازال يلقى خطبة صلاة الجمعة ...

بعد انتهاء الصلاة يتجه أهل "المحلة" إلى سوق قريب من المسجد يشترون مايلزمهم من خضراوات وغيرها .. كانت فرصة لوحيد ورفيق أن يتسوقاماينقصهما من هذه الأشياء التى يحتاجانها بسعر معقول لتبقى لديهم حتى يوم الجمعة القادم لأنها لا تتوفر باقى أيام الأسبوع فبعضها يجلبه سكان الهجَر والنجوع المحيطة بالقرية حين يقدمون للصلاة فى المسجد الكبير .

(٧)

غيوم داكنة تلبد صفحة السماء ، وابل الأمطار مستمر منذ دقائق . المراجعون مسرورون من الأمطار ، لأنها ترفع منسوب المياه فى آبارهم .. تتكاثف الغيوم ويزداد المطر شدة ، يخرج رفيق من الغرفة التى يعمل فيها

ويقف تحت الأمطار خارج البناية ، يتابعه وحيد من النافذة وينظر إليه باستغراب ، يفتح النافذة رغم هطول الأمطار ويناديه يحثه على الدخول لأن هذا سيضر بصحته . فقد كان يعاني من اضطرابات في القلب . لكن رفيق يستمر واقفًا وقد ابتلت ملابسه تمامًا . ينظر إلى السماء . يفتح فمه يبتلع بعض قطرات المطر المنهمر عليه .. يتحرك بإيقاع منتظم ، تزداد حركته ، يتمايل . يبدو كأحد أفراد القبائل البدائية ، وهو يرقص بإيقاعات متتالية ، يكررها بدقة ، وكأنها طقوس تسبق تقديم القرابين في معبد وثني أمام سدنة متعطشين إلى مزيد من سفك دماء الضحايا وهم يباركون ذلك وسط قرع الطبول . يزداد رفيق تمايلاً ويرتفع صوته بترنيمات غير مفهومة ، الأمطار غزيرة ، يختلط صوت نزولها مع صراخة وهو مستمر في رقصته البوهيمية الصاخبة . العاملون في المركز يشاهدون مايجرى أمامهم ، ينطلق من بينهم وحيد ويجذب رفيق الذى يدفعه حتى كاد أن يسقط في برك الماء الموحل الذى تجمع أمام البناية .. علا صوته قائلاً : اتركوني لوحدى .. وعاذ إلى رقصته المجنونة وعيناه يشع منها غموض مُوحش .. أصبحت ملابسه بلون الوحل الذى يرقص عليه . بدأت الأمطار تخف ورفيق يلهث تحتها ويقهقه ثم ارتمى على الأرض الموحلة . أسرع الجميع إليه وحملوه إلى الداخل . كان جسده ساخنًا رغم بقائه فترة تحت الأمطار . كانت أنفاسه متسارعة وهم ينقلونه إلى سيارة المدير الذى ينقله إلى مستوصف القرية برفقة وحيد .

استبدل رفيق ملابسه بعد أن أوصلهما المدير إلى المنزل ووحيد يقف بجانبه يساعده على تناول الدواء الذى وصفه الطبيب .. كان العرق يتدفق غزيراً من جسده المحموم . وبعد أن استعاد بعض توازنه .. حاول وحيد أن يجد تفسيراً لما حدث لصاحبه في نوبته الهستيرية الراقصة التى كانت مفاجئة للجميع ممن شاهدوه ، لدرجة أنهم خشوا أن يقتربوا منه . بدأ

وحيد يسترجع ماقرأه مؤخراً في كتاب "سيكولوجية الفكاهة والضحك" للدكتور زكريا إبراهيم . فلم يسعفه ذلك لتفسير تلك الحالة الهستيرية من الرقص والضحك وعزم على أن يستفسر من رفيق بعد أن تتحسن حالته ، فقد أقر بعجزه عن فهم ما حدث ولم يحب أن يتعلق بأوهام حول هذا الحادث الفجائي المليء بالغرابة ، واعتبر ماقام به رفيق هو نوبة يصعب معرفة أسبابها لكنها لم تؤثر على علاقته به في المستقبل واعتبر ذلك زوبعة خريف أسقطت بعض أوراق تلك الشجرة الدفواء إلا أنها لم تستطع اقتلاع جذورها . فإن الصداقة التي قامت بينهما لم تدع له مجالاً للشك أو الخوف.

مرت عدة أيام تحسنت فيها حالة رفيق الصحية ، وكعادة الناس في هذه البقعة من الأرض حين يشتد الحر ، أن يجلسوا خارج منازلهم يستظلون بجدرانها . وساعد على ذلك تباعد البيوت عن بعضها بدرجة لا تسمح للآخرين بالتنصت أو كشف مستورهم . اعتاد وحيد أن يجلس مثلهم وبالذات بعد أن جاء رفيق .. أعد وحيد كوبين من الشاي وجلس مع صديقه أمام المنزل كالعادة . استطاع وحيد أن يدخل إلى ماكان يؤرقه بشأن صاحبه وقال له : أخبرني ، صادقًا ، ماالذي دفعك إلى نوبتك الجنونية ؟؟

– لا تقل جنونية . لقد اندفعت حين تخيلتها تدعوني لكي أراقصها .. فأسرعت واندمجت مع ما تهيأته ، وكأنني أقوم بتأدية طقوس معينة بلا إرادة مني . واصلت بطريقة لا شعورية إلى درجة الإعياء والسقوط في الوحل... كما شاهدت .

– أعرف أنك لاتؤمن بالخرافات لتعطيني مثل ذلك التفسير .

– لم أقل إلا ما أحسست به .

– نسيت . من هي التي دعتك ؟؟

– إنها حكاية أخاف من نهايتها .

زاد فضول وحيد وهو يرتشف بعض الشاى . . ظل صامتًا مترقبًا . تابع رفيق حديثه مع صديقه وهو يقول : لابد أنك أقدمت على تصرف لاتعرف كيف حصل . كأن هناك قوة خفية تدفعك إلى القيام به لاتستطيع أن تفسر ذلك في حينه. تنهد ثم قال ووحيد يتابعه باهتمام : إن ماتدركه حواسنا ولو كان ضئيلاً . . قد يثير في داخلنا انفعالاً صاخبًا يتجاوز إطار ذلك الإدراك البسيط .

- حقًا يارفيق فإن حوادث لحظة واحدة قد تؤثر في حياتنا أكثر مما تفعله أيام طويلة .

- المهم هو القدرة على معرفة حقيقة تلك الأحاسيس المصاحبة لذلك الحدث والتعمق فيها لكي تنضج تجارب الحياة رغم أن الألم قد يكون شديداً لحظة معاناتها .

- لكن شدة الألم وعنفه يقصران من مدة استمراره .

- هذه نعمة وإلا أصبحت الحياة جحيمًا لا يُطاق .

- ألاترى أننا بعدنا عن الموضوع الذى يشغلك .

- لم يكن بعيداً إلى درجة كبيرة . هيا أفصح "ياجرير" . قصد وحيد أن يقول ذلك ليدخل بعض المرح على جلستهما حتى لاتبدو أشبه بالاستجواب .

ابتسم رفيق وقال : أظن أنك تعرف ذلك الشيخ الذى يأتى للمراجعة بشأن أرضه التى تقع خلف الجامع الكبير .

- أتذكره ؟ ماعلاقته بما حدث ؟

- لقد دعانى لزيارته ، كما تعرف ، وقد طلبت منك أن ترافقنى ، لكنك اعتذرت بحجة أنه لم يقم بدعوتك ، وقلت إنك لا تحب أن تقيم علاقات كثيرة مع الغير .

- ماذا حصل ؟

– أنت تعرف عاداتهم هنا ! حين يَطْمئنون إلى إنسان ، فإنه يصبح مع تكرار الزيارة واحداً منهم .

– هذا أمر طبيعي ، ويحدث في أي مكان ، وليس هنا فقط حتى في بلادنا . ما الغرابة في ذلك ؟

– الغرابة أنني أُعجبت بابنته زكية كبرى بناته ، عمرها حوالي الثمانية عشر عامًا لم تكمل تعليمها وخرجت من المدرسة بعد الصف السادس الابتدائي . كانت تجلس معنا كعادتهم أيضًا فجذبني حديثها وملاحة وجهها "القمحي" .. جمالها الفطري فيه شيء يأسرك لو رأيتها .

– إلى هذا الحد تقصد أنك وقعت . . .

– إنه الحب حين يجسد إحساسك بالحياة .

– أخاف أنك تشتهيها فقط .

– وما الفرق أليس في الحب رغبة واشتهاء .

– سيشقيك ذلك . فالحياة تكون أكثر بساطة بعيداً عن عذاب الحب .

– هل جربته ؟ هل أحسست بالدفء يسري في جسدك وأنت . .

– إن الذي دفعني إلى المجيء هنا هو الحب يارفيق لكنه هناك وليس هنا .

– وما الفرق أليست زكية إنسانة يخفق لها القلب ؟

– عليك أن تتفهم ما أقوله . . . في لحظات القلق والحرمان العاطفي يتخيل المرء أنه لو التصق بشخص ما ، قابل هوى في نفسه ، أنه سيجد الحب والحنان الذي يفتقده في حياته ، وفي واقعه .

– قد يكون ذلك ، إنني لا أستطيع أن أعبر أكثر عما أشعر به نحوها إنني أحبها الآن ، ولا أكترث بالغد .

– منتهى الأنانية – هل فكرت حقًا فيما سيحدث لو اكتشف أمرك ؟ إنني أخاف عليك .

– أعرف أنني سأتعذب من هذا الحب .

كان وجهه جامداً وهو يقول ذلك ، ثم ارتسم عليه تعبير أليم يكشف عن مدى حيرته وارتباكه . لكنه قال بحدة : إنه حب حقيقي ومشاعرى صادقة ، ولا أعير انتباهاً لأى شكليات تمنعنى من الارتباط بها .

أخذ وحيد يراقبه باستغراب فى البداية ثم بشعور القلق بعد ذلك ، لمسهُ وقال : إذن هى قصة حب أخفيتها عنى.

ـ أحببت أن أتحقق من مشاعرى نحوها ، صدقنى ، كنت سأبوح لك بكل شىء .

ـ لولا تلك الحادثة لطال الوقت . عموماً لك ما تريد ولكن كن حذراً. فأنت لا تعرف حقيقة تقاليد هؤلاء الناس .

ـ يبدو عليك عدم الرضا .

ـ لك مطلق الحرية فى عواطفك ، لكننا غرباء فى هذا المكان .

ـ ليس إلى هذا الحد .

ـ إننى أنصحك . هناك تباين فى مثل هذه العلاقات من مكان لآخر .

ـ القلب لايعرف منطقًا والحب لايعترف بمكان أو زمان ، وإن لمشاعرنا دوافع لا يفهمها العقل .

ـ إنك تفلسف موقفك ، لاأملك لك إلا الدعاء بالتوفيق .

ـ إن فى لهجتك نبرة اتهام .

ـ أنت أسير عواطفك وأخاف عليك . أقولها مرة أخرى .

ـ ألا تريد أن تسمع باقى قصتى معها ؟

ـ هل هناك ما يستدعى الفضول والاهتمام ؟ إذن أكمل .

ـ مع تكرار زياراتى لهم ، كنت أنتهز فرصة لمحادثتها حين يخلو المكان لوقت قصير . وجدت منها ميلاً نحوى، وفى إحدى المرات وكانت وحدها. بحت لها بما أشعر به نحوها . فجفلت وقالت : إن أهلها لايعترفون بالحب وأرجو أن يبقى الأمر بيننا سراً ولاتخبرهم بذلك أبداً وإلا كانت نهاية

لقاءاتنا هذه . حينها أمسكت بيديها الصغيرتين ، بدأت تتفحصنى بعينيها ويداها ترتجفان فى أحضان يدى ، بدا عليها الارتباك والخجل الممزوج بالاستغراب وعدم التوقع ، وأخبرتنى أن أفكارها مشوشة ، وتخاف أن يأتى والداها وأخواتها فجأة من زيارة قصيرة إلى الجيران ، قلت لها على عجل : إنهم لن يشكوا فى وجودى .. حاولت أن تسحب يديها . لكننى جذبتها نحوى واحتضنتها .. أقحمت يدى خلف ظهرها فارتعشت ، ثم مسحت بكفى عنقها الصغير المبتل بالعرق البارد بعد أن أبعدتها قليلاً .. وفجأة اتسعت عيناها .. وقالت بلهجتها المحلية : "شنو بتدير ؟" "أصابك جن" . وكانت تقصد ماذا تفعل يامجنون . شعرت بالخوف بعد ذلك من فضيحة ، وتوقعت أن تطلب منى أن أنصرف وأبتعد عنها . لكنها اقتربت والتصقت بى ووضعت وجهها على صدرى . كانت تبدو بريئة وهى تستجيب بعض الشىء . قد تكون تلك اللذة الخفية هى التى دفعتها لأن ترقد بين ذراعى وجلة حيية ، ثم رفعت عينيها الجميلتين نحو وجهى . أدركتُ أنها تحاول أن تكتشف فيه ذلك السر الدفين لهذا التصرف المفاجئ .. انسابت بعد ذلك من بين ذراعى وأخذت تضغط على يدى بقوة.. وقالت : لم يحدث لى ذلك من قبل . ولم أكن أرغب فيه .. رغم أننى أحبك .. ابتعدنا . نظرت إليها قبل أن أخرج . كانت تبتسم بخجل ثم لعقت شفتيها . بعدها شعرت أن وجيب قلبى قد زاد . وقررت أن أطلبها من والدها .. لم يكن وحيد يتابع باهتمام كل ما قاله رفيق . فقد ابتعد بذاكرته إلى جارته الموظفة حين تماهت مواقف رفيق مع بعض مواقفه معها فى سياق علاقته قبل التخرج والانغماس فى حياته العملية .. تنبه رفيق إلى أن وحيد كان سارحًا فسأله مباغتًا : هل كنت تصغى لكلامى ؟ فقال متداركًا : وهل ترى غير ذلك ؟ يبدو أنك تماديت.

– لكن بلا انتهازية أو استغلال .

– ومتى ستطلبها من أبيها ؟؟

– ما رأيك ؟ فى الأسبوع القادم ؟!

– هل أخبرتها بنيتك ؟؟ وهل وافقت عليها ؟؟

– نعم ، وأخبرتنى أنها ستكلم والدتها حتى تمهد الطريق لنا

– وهل تعتقد أن والدها سيوافق ؟

– أظن ذلك ، فهو يقدرنى .

– تقديره لك نابع من كونك تخدم أغراضه لمصلحته . ولا تنسى أنه ريفى لايعرف المراوغة فى هذه الأمور .

– قلت لك إننى عازم فعلاً على طلب يدها حسب الأصول .. ثم إنه يعتبرنى ابنًا له لأنه لم يخلف إلا الإناث كُبراهُن زكية وأنا لن أكون نذلاً .

– لا تتهاون فى ذلك ، لا أحب أن أراك فريسة لأهوائك .

– لا تخف فإننى واثق أن الأمور ستسير حسب ما أرغب . ويكفى أنها تريدنى .. هكذا تقول عيناها حين أنظر إليهما .

– حقًّا إن النفوس إذا تشابهت أفصحت عن نفسها بلا كلام .

(٨)

تمر الأيام يطويها دولاب الزمن .. ساعات العمل تمضى أحياناً متثاقلة . ويأتى الليل يحملنا بهمومنا إلى مراقدنا . نتثاءب . نتقلب على فراشنا يتملكنا النعاس . ننام . نحلم . نصحو . يصدمنا الواقع . نتمنى لو استمرت أحلامنا نعيش فيها مع رغباتنا ، أحبائنا ، أهلنا والأصدقاء . ردد وحيد ذلك فى نفسه مع أول رسالة يتسلمها ... من خطيبته . مليئة بالشوق والأمل ترجوه فيها أن يعود .. عباراتها تحمل صدق مشاعرها والحب الموعود مع رحلة العمر فى قادم الأيام . يعيد قراءتها ، تستوقفه بعض العبارات ، يمعن فيها النظر . بعادك جعل حياتى مواتا والحنين إليك

يزداد ، هجرني النوم . ايامي يعشش فيها الملل . لا جديد في حياتي سوى تجدد مشاعري نحوك ، وأمل يهدهدني ويُصبّر في حتى القاك . تملكه حزن أرهف مشاعره وشعر بحاجة إلى الخروج بين المزارع البعيدة يبثها همومه ويسترجع ذكرياته .. معها .. تحت أشجار النخيل الباسقة التي يكثر نموها بريًّا دون تدخل في زراعتها . والرسالة في جيبه . نظر إلى السماء بزرقتها الصافية ، والهدوء رفيقه . تمنى لو أنها معه تجلس بجانبه .. تطلب منه أن يتمشيا سويًّا كما كان يحصل حين كانا يجلسان في "المنتزه" الكبير « ميريلاند » في ضاحية مصر الجديدة . يذكر ذلك جليًا حين قالت : أحب أن أمشي معك .

– أخاف أن تتعبي .

– إنها رغبتي ، لاتقلق .

– كما تشائين .

– هل لاحظت كيف كان الناس في "المنتزه" ينظرون إلينا .

– لم أنتبه فحين أكون معك تشغلينني . وأظن أن أناقتك وجمالك هما السبب .

– لا تمزح .

– هذه حقيقة .. أشعر أحيانًا بالغيرة عليك .

– إنك تجاملني كثيراً .

– لأنني أحبك ..

نظرت إليه ثم قالت : لم نكمل حديثنا عن المستقبل .

– تقصدين فيما يتعلق بالحمل والإنجاب .

ابتسمت وقالت : إن رأيك في هذا الموضوع اقلقني .

– لم أقصد سوى التأجيل واطمئني فإن الرجل يحب أن يكون له أبناء من المرأة التي يحبها . التفت إليها ثم أمسك بيدها وقال : لاتتعجلي

فمازلنا فى أول الطريق خطيبين . شعرت ببعض الحرج وانخطف لونها . . فقد كانت كلماته أكبر مما توقعت ، لاذت بالصمت وفى عينيها نظرة عتاب .

لاحظ ذلك وقال : لم أقصد أن أضايقك .

– لا أخفى عليك أننى أشعر ببعض القلق بعيداً عنك ويختفى حين أكون معك .

– لا أفهم . ماذا تقصدين بالقلق ؟

– بعض الاضطراب حين أسترجع كلامك عن الحياة والواقع . وعدد أبنائنا فى المستقبل وعن نظراتك إلى المستقبل .

– وهل فى ذلك مايقلق ؟؟

– مجرد صدى لبعض ماأسمعه منك . فأنت كالبحر مليء بالأسرار كلما ازددت غوصاً فيه أكتشف جديداً .

– أخاف عليك أن تغرقى .

– لا تنزعج فأنا أعرف أن أعوم .

ضحك وقال : أحب أن أكون كتاباً مفتوحاً أمامك .

– إننى أحتاج أحياناً إلى قاموس لأفهم بعض مايستعصى علىّ .

– حسناً لنمر إذن على أقرب مكتبة .

ضغطت على يده وهما يسيران فى شارع هادئ خلف "الميريلاند" تملكتها رغبة أن تجرى قليلاً . أخبرته ، جريا بضعة أمتار . كانت مفعمة بالحيوية والشباب متفتحة للحياة متفائلة أكثر منه فليس فى حياتها مايدفعها إلى التشاؤم . مشاعرها مستقرة بوجه عام قانعة بحياتها ، طموحها عادى كأى ، فتاة فى عمرها تبحث عن الأمان مع شريك المستقبل.

يعود وحيد إلى البيت . . لم يجد رفيق . فقد كان موعده مع والد

زكية ليطلبها منه .. يشغل نفسه بتحضير بعض الطعام ريثما يأتى ...

لم يمض وقت طويل ، حتى عاد رفيق وعلى وجهه كآبة واضحة ، مقطب الجبين مهموماً لم يلتفت إلى الطعام فوق الطاولة التى يجلسان إليها لتناوله كالعادة .. لم يمارس هوايته فى تذوق كل شىء قبل أن يأخذ مكانه فى الجهة المقابلة لوحيد . سأله وحيد : ما سبب حالتك هذه . هل حصل مكروه عند أبى زكية ؟ أخبرنى .

كان رفيق يحب أن يُكنى الشيخ أحمد والدها بأبى زكية حتى يبقى اسمها موجوداً وهو يتحدث فقط مع صديقه ليشعر بالغبطة والسرور .

لم يتردد رفيق كثيراً فهو لا يستطيع معايشة همومه لفترة طويلة فقال متضايقًا : لقد طلب منى "أبو زكية" أن انتظر قليلاً . حتى يستشير أفراد عائلته فى هذا الموضوع .

– هذا أمر متوقع ، ولاداعى أن تكتئب .

– المشكلة رغم أنه وافق مبدئيًا .. فقد شعرت أن موافقته كانت نوعًا من التهرب لعدم إحراجى .

– قلت لك سابقًا : إنهم لايعرفون المجاملة أو التلاعب ... فهم يعيشون فى مجتمع قبلى والعلاقات بينهم بسيطة ، واضحة ، لكن لاتستطيع أن تتصور الشذوذ عنها ، أو مخالفة العرف السائد بينهم .

– أرى أنهم لايختلفون كثيراً عن طباعنا ، فأنت تعرف أننى أعيش مع أسرتى فى إربد فى الأردن منذ أن نزح الأهل إلى هناك عام ١٩٤٨ ... والعادات تشبه مايجرى هنا مع اختلاف طفيف .

– قد يكون الأمر كذلك ولكن هناك من الأمور ما لايستطيع والدها أن يبت فيه بمفرده ، وإلا نبذه مجتمع القبيلة . ثم ياأخى لاتنسى أنك غريب عنهم .

– غريب ، إنك تدخل اليأس إلى نفسى تمامًا كما شعرت حين سمعت

كلام والد زكية .

ـ كل شيء في هذه الحياة لا يأتي بسهولة .

ـ كنت أتصور أن الأمر عادى ، بما أننا عرب ومسلمون .

ـ عليك بالصبر ، كل شيء نصيب ، ومشكلتك مع الوقت .

ـ لا أفهم ماذا تقصد ، فأنا لا أحب الألغاز .

ـ كل مافي الأمر أنك تحتاج إلى بعض الوقت قد يطول أو يقصر .. ثم تتضح الأمور . وأتمنى أن تكون لصالحك يارفيق زكية . قالها وهو يمد يده ليصافح رفيق ليخرجه من حالة الضيق التي يشعر بها . لكن رفيق ظهرت عليه مسحة من الحزن وهو يقول : هذا ظلم ، إنه واقع ظالم أليم .

ـ يبدو أنك أعطيت لعواطفك الكثير ولم تحكم عقلك .

ـ الحب لايعرف قانونًا أو منطقًا .

ـ الواقع لا يعترف بمشاعرنا أحيانًا .

ـ علينا أن نغيره بطريقة أو بأخرى .

ـ كيف ونحن تحكمنا التقاليد ؟ لاتنس أننا عرب نحب أن نعيش حاضرنا بماضينا .

ـ تقاليد ، تقاليد . لقد سئمت منها . قالها رفيق وهو يضغط على مخارجها بانفعال .

ـ لا تستطيع تبديل العالم وحدك .

ـ قد تكون البداية .

ـ وقد تكون الضحية .

ـ ليس دائمًا ، فإن الذى أشعل نار الحروب الصليبية جندى مجذوب بقى على قيد الحياة بعد ذلك .

ـ وماذا كانت النتيجة ؟ دمار وضحايا ورجع كل شيء كما كان . ثم إننا في الشرق لانحب التغيير كثيراً . نقدس ماضينا ونقتل حاضرنا من

أجله .

– هذا جُبن .

– لكنه سائد منتشر ، جزء من طبيعتنا الموروثة .

– كل شيء يدور بين الكواليس .

– تقتلنا المظاهر . وأشفق عليك من هذه التجربة .

– قد أرتكب حماقة !!

– ستندم على ذلك ، لن يكون تأثيرها عليك وحدك .

– هل أدفن الأمل فى قلبى ؟

– حتى تتأكد من النتيجة .

– متى ؟ قد أبقى أنتظر كبطل مسرحية "جودو"

– هذا قدرك الذى سعيت إليه .

– عالم شرير ، لامكان للحب فيه .

– تعنى : لايعترف بحب الغرباء .

– أشعر أن أحلامى تطير وتبتعد .

– إلى عالم المستحيل .

– قد يكون ، قد يكون .

– لكن هذا لايلغى مشاعركما أنت وزكية .

– وما الفائدة ؟ فالحب ارتباط ، يحتاج إلى التلامس .

– قد يفتر مع الزمن .

– تقصد الحب الزائف .

– التجارب تؤيد ذلك ، اسأل المتزوجين .

– لا أعتقد ، فهم قد لا يعرفون أسرار الحياة .

– وهل أنت تعرفها ؟؟

– قد يدوم الحب مع التجديد .

– إلى أى حد ؟ أتتزوج كثيراً حتى تجدد الحب .

– قد يكون هذا أحد الحلول ، ولكننى أعنى أن نطرد الملل من حياتنا بعد الزواج .

– كيف ؟

– أن نفتعل المواقف .

– الافتعال مكشوف وقد يؤدى إلى نتيجة معاكسة .

– لكنه تجديد .

– مارأيك بالابتعاد المقصود بعيداً عن الانفعال .

– قصدك .. فرصة لإعادة النظر فى الواقع المعيش .

– إعادة منهجية لتشكيل الحياة من جديد والتخلص من روتينها الذى تولده رتابة الحياة الزوجية .

– هل ستقوم بذلك بعد زواجك من وفية ؟؟

– لا أدرى . فالموقف مختلف .

– أرى أن حياتى مع زكية قد لاتحتاج إلى كل ذلك .

– الديمومة تفتت لذة الأشياء .

– لكنها تزيد من العشرة والارتباط .

– قُل نتعودهما ، وهنا المشكلة ، فالعادة تقتل الحب .

– تقودنى إلى بداية اليأس .

– لا ، فاليأس يثبط الهمم وأنا لا أحب لك ذلك .

– ماذا سيحدث لى إذا رفض والدها ؟

– مجرد موقف .. تتعلم منه .

– لكنه مؤلم .

– يكفيك ذكراه .

– قد تدوم طويلاً وتفقدنى الرؤية الصحيحة .

- لأنها تجربة عنيفة ، لعب فيها المستحيل دوره فعمقها وحفرها فى قلبك .

- الفراق بعد الحب جحيم .

- لكن بلا إرادة منا .

- لا أستطيع تحمل الصدمة ، لا أتصور حرمانى منها .

- مع الحرمان تكبر العواطف وتتقد الأحاسيس .

- مع حب مستحيل محروم .

- لكنه كبير وعنيف يكاد يقتلنى ...

- لقد شطحنا بعيداً ياعزيزى وأتمنى أن أحضر يوم زفافك على زكية وأقوم بدور "كنوم" .

- من هو "كنوم" هذا ؟

- سأخبرك ولكن لاتسئ الظن : كانت هناك عادة فى العصور الوسطى وبالذات فى فرنسا حيث يقام مهرجان العرس وعند انتهائه يحضر شاهد يعرف باسم "كنوم" وغالبًا مايكون صديق الزوج يرافق العروسين إلى مخدع الزوجية ، وبعد أن يتجردا تمامًا من ملابسهما أمامه يغادر هذا الشاهد الصديق الحجرة ويقف وراء الباب المغلق يصغى وينصت ، وعندما يقتنع بأن الزواج قد تم يطلق رصاصة فى الهواء ويشاركه الرجال المدعوون إلى الزفاف فيطلقون النار احتفالاً بهذا الحدث السعيد .

- يالك من ماكر ! لن يحدث ذلك معى وإلا قتلتك . يقهقه ولكن ليست كقهقهته تحت الأمطار ... ينهض يجمع بقايا الطعام والأطباق ليغسلها فهذه مهمته إذا أعد الطعام "وحيد" .

هكذا سارت أيامهما يتخللها بعض العتاب قد يصل إلى حد القطيعة وعدم الكلام لمدة يوم أو أكثر إلا أنهما يعودان .. أكثر وداً وصفاءً .. مع كل موقف جديد تزداد أواصر الود والصداقة بينهما .. ومع الزمن تزداد

المحبة ويحل الوفاق ، ومع التفاهم تتوطد العلاقات .

ولكن هل ترضى الحياة أن يبقى البشر سعداء دائمًا ؟

(٩)

إحساس غامض بالضيق يحتل صدر وحيد بعد أن نهض من نومه وهو يتذكر حلم الليلة الماضية الذى رأى فيه جماعة غريبة من الناس لم يصادفهم قبل ذلك فى حياته الواقعية . يجرونه بعد أن وقع فى شرك صيد نصبوه له – لم يفهم سبب ذلك . ورغم آلامه لم يصرخ . اكتفى بنظرات يملؤها الرعب والذعر خلال فتحات الشبكة التى وقع فيها . جسمه المسحوب فوق أعشاب شوكية لايؤلمه وحين يصلون إلى غابة من الأشجار المتحجرة يخرجونه ويضعونه فى إناء كبير فوق نار أوقدوها. يبدءون برقصة وحشية صاخبة حوله ، يشعر بالدوار والدوخة وهو يتابعهم ، تخرج عيناه لمتابعة الجمع المحتشد حول القدر الكبير عن قرب . يمد يده لتلتقط عينيه وترجعهما إلى محجريهما . يتقدم منه رجل ضخم بعين واحدة فى منتصف جبهته ويقطع جزءاً من جسمه ويمتص بعضًا من دمائه التى تدفقت وملأت الإناء .

شعر وحيد أنه سيغرق وسط دمائه التى بدأت تغلى . يحاول النهوض لم ينتبه أنه عارٍ تمامًا . يزداد تدفق دمه من القدر إلى الأرض المحيطة به يستلقى عليها البعض ليلعقوا الدماء فتتلطخ وجوههم . ثم يقفون ويبصقون مافى أفواههم فى الهواء فيظهر لون الدم الأحمر ... حينها تملكهم الذعر فهربوا جميعًا وبقى وحيد فى الإناء يحاول أن يعيد مافقده من الدماء وذلك بإرجاعها ثانية إلى جسده داخل الجرح الغائر الكبير الذى نتج عن نزع جزء منه حين هجم عليه الرجل ذو العين الواحدة ..

استعاذ بالله من الشيطان وهو يغادر غرفة نومه . حاول أن يجد تفسيراً

لحلمه الغريب . لكنه أقلع عن ذلك بعد أن عجز عن إعطاء أى مدلول له .. سائلاً الله أن يرحمه ويجنبه المتاعب وشرورها .

يأتى الخريف برياحه التى تثير الغبار الذى يبقى عالقًا لفترة طويلة فى الجو معظم ساعات اليوم .. تسقط بعض أوراق الأشجار وتجف الأعشاب تحملها الرياح فى حركتها الدائمة طيلة هذا الفصل من السنة .. من مكان لآخر .. مع استمرار الرياح والغبار ، يستمر وحيد فى نوبات عطس متقاربة، لفرط حساسية أنفه من ذلك الغبار الذى يقتحم حتى الغرف المغلقة عبر تلك الشقوق والفتحات الصغيرة التى تكون حول النوافذ والأبواب . فيشعر بصداع شديد لاتخففه أقراص الإسبرين التى يتناولها ويصبح الاستمرار فى العمل مرهقًا .. يستأذن أحيانًا .. إذا انتهى مبكراً من العمل . لايمانع المدير الذى تفهم حالة وحيد الصحية .

فى الطريق إلى البيت فى هذا اليوم بالذات الذى شعر فيه وحيد بالانقباض بسبب ذلك الحلم – كادت الرياح أن تحمله معها رغم أن جسمه ليس صغيراً . حاول الاحتماء بجدار منزل قريب وهويضع راحتيه على وجهه ليحيمه من الغبار وحبات الرمل التى تضربه . فامتلأت نفسه بالهزيمة أمام العاصفة وأخذ يحدثها : ليتنى لم أخرج من البيت – بدايته لم تكن مشجعة – لا أستطيع وصف ما أعانيه . كم من الوقت سأبقى على حالى ؟ أشعر أن الثلاث سنوات التى قضيتها هنا لم تضف لحياتى شيئًا . أيامها مكرورة ، الأمس كاليوم ، والغد يحمل سمات الحاضر . أشعر بسلبية الدور الذى أقوم به فى الحياة وأنا أجترها بعيداً عن موطنى . أستمع إليها وهى تغنى أغنية نشازاً تفتقد إلى التناغم وهى تزيد من شعورى بالقلق فى حاضرى مسلوب الإرادة ، ومستقبلى يفتقد الأمل . أعيش الشقاء وحرمان دفء الأهل . كل ما أحصله فتات العيش .. أمضغه .. تلوكه عاطفة مثلومة ، تنزف الأسى والحزن . أحتاج إلى معجزة تنتشلنى من واقعى .

ياحظى التعيس فقد ولى عصر المعجزات وأنا أطفو كبقعة زيت صغيرة فوق عباب محيط الواقع المرير ، تلامس مياهه ، تسير معها بلا مشاركة أو اختلاط . فأبقى وحيداً وأخاف أن أغرق فى لجته فاهوى ... وحتى لا أتلاشى ... أظل طافيًا يحركنى ذلك التوتر الصاخب فى صدرى ويدفعنى إلى حافة الجنون . فأهرب من واقعى عبر خيالات أعيش فيها أحلامى الماضية ، وأوهام ضبابية تجرنى إلى حاضرى حتى لا أتبين مايدور حولى .. وعيون الآخرين تغتصبنى فى حالة ضياعى . وعلى شفاههم الممطوطة استغرابًا تساؤل مبتور بلا إجابة .

تهدأ العاصفة قليلاً . يتابع خطواته ، نظارته على عينيه ، ورأسه متنفش الشعر . قائم فوق رقبته كقنفذ كبير . يدخل البيت . يتخلص من ملابسه المعفرة بالتراب ، يأخذ حماماً بارداً ليسترجع بعضًا من حيويته .. ينظر إلى المرآة يرى عينيه محمرتين . يضع بعض قطرة العيون ليحافظ عليها لأن الحياة بدونها تفقد الكثير من تنوعها الذى قد يجلب السعادة فى بعض الأوقات حين تلبس الدنيا ثياب عرسها فى ربيع عمرها ..

يشعر بالنعاس ، يستلقى على سريره ، يسمع له صريراً كأنه أنين صارخ – لكنه يخلد إلى النوم بسرعة .

يأتى رفيق بعد أن انتهى عمله .. فى يده رسالة لوحيد الذى مازال يغط فى نوم عميق . هَمَّ أن يوقظه ، تراجع حين علا شخيره وفضل أن ينتظر نهوضه من الفراش .

(١٠)

دموع ساخنة تنهمر من عينى وحيد وتنزلق أسفل ذقنه . لم يحاول إيقافها وهو يقرأ الرسالة التى أحضرها رفيق ... كانت من والدته . يتحول بكاؤه الصامت إلى نحيب مسموع . يدخل رفيق ويراه على هذا الحال من

النحيب المستمر ، يستغرب ويسأله : ماذا حصل ؟؟ لم يرد وحيد واستمر في البكاء . يعاود رفيق استفساره فيقول وحيد والدموع تخنق صوته والعرق يتدفق غزيراً على جبهته : لقد توفي والدى ووالدتى تدعونى إلى المجىء لأحمل المسئولية . يسود الصمت بينهما . يقطعه رفيق قائلاً : كلنا لها . نسأل الله له الرحمة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . كان صوته مفعمًا بالحزن ، وحال وحيد يدعو إلى الشفقة . وجهه متورم وعيناه محمرتان منتفختان والدموع نهر لايتوقف على وجهه الحزين . كان بحاجة إلى بقاء رفيق بجانبه ليخفف عنه ويواسيه فى مصيبته الفجائية وهو يتذكر تلك الأحاسيس الحزينة الماضية حين فقد والده فى حرب ١٩٦٧ شاكلت مشاعره التى أتت مع الحدث الجديد لصاحبه إلا أن الزمن كفيل بتخفيف الأحزان التى ترحل بعيداً لتعود – تزور الحاضر – رغم أنها أصبحت جزءاً من الماضى . ولكن بلا تأثير كبير وهى تصاحب الإنسان فى سفره المستمر إلى عبور بوابة الأبدية الكبيرة . بعد أن يمر .. بمحطات عديدة من الأتراح والأفراح فى درب حياته تحيط به ظروف متباينة . لايكون فى كثير من الأحيان مسئولاً عنها ..

(١١)

مضت أيام قليلة أتم فيها وحيد تجهيز نفسه للسفر إلى القاهرة حيث تقطن أسرته فى "شبرا" الحى الشعبى المعروف . منذ أن أبعدهم اليهود سنة ١٩٦٧ بُعَيْد احتلال قطاع غزة الذى كان مرفأهم بعد النزوح الأول إليه سنة ١٩٤٨ . ارتضى والده أن يعيش فى المكان الجديد وهو يرنو إلى الرجوع الذى كان يظنه قريبًا فى كل مرة لكنه صعد إلى بوابة السماء بعد أن مضغته الحياة فى غلسها الدائم وهى تعيد حمله فى أحشائها ثم تلقيه بعد مخاض أليم مخنوقًا يكاد يلفظ أنفاسه ، وهو يستنشق فى بؤسه هواءً راكداً

فاسداً بعد أن استعمله الآخرون . لم يكن وحيد يحب أن يراه أحد . وهو في لحظة ضعف حتى لو كان سببها وفاة والده . استطاع أن يستعيد توازنه ويكبح شرايين الحزن في نفسه بعد أن ودع صاحبه في سبها وانتقل إلى مطار طرابلس . لايشعر كثيراً بما يجرى فيه من حركة المسافرين والقادمين. بعد ساعتين . . وصل مطار القاهرة الكبير استقل سيارة أجرة . . فاجأ الأهل لأنه لم يخبرهم بموعد حضوره . . تقابله أخته . صورة مصغرة من أمه التى كانت تقف وسط الصالة تستطلع الأمر حين سمعت الترحيب المخنوق، والأسى يحتضنها تسرع وتتقدم من ابنها تبثه حزنها وقلقها في عناق طويل بعد أن سبقته عبراته حين عانق أخته . . إخوانه واقفون ينتظرون عناقه ، والصمت تعبير تنقله عيونهم يفصح عما في نفوسهم من أسى ازداد بعد رحيل والدهم بعد معاناة قصيرة مع المرض .

أخافهم غموض الموقف . بعد حضور وحيد الذى كان يجسد أملهم في تحسين أوضاعهم المعيشية .

بعد فترة راحة قصيرة يطلب منهم أن يأخذوه إلى ضريح والده . رجته والدته أن ينتظر حتى الغد ليرتاح من وعثاء سفره إلا أنه أصر واقفاً ، فرافقه أخوه صابر الذى يصغره بخمس سنوات . كان يشعر أنه بحاجة إلى زيارة والده في مثواه الأخير . . ليبثه بعض همومه همساً عبر الثرى الذى يضمه ويرجوه أن يحنو عليه بقدر ماكان يحنو عليهم رغم معاناته في حياته . لم يبخل عليهم حتى في أشد الأوقات فقراً ، كان يتحامل على نفسه ، ويتوارى خلف آلام واقعه بعيداً عن يافا التى كان يحلم بالعودة إليها ، وهو يقص ويحكي عنها الكثير عن جمالها وبحرها وبرتقالها وأحيائها القديمة حيث مسكنه قبل الرحيل . حتى باتت يافا حاضرة بمعالمها في وجدان أبنائه وبالذات وحيد أكبرهم الذى كان بدوره يتمنى أن يستنشق عبيرها المفقود في حياته بعيداً عنها ، اعتصره الحزن حين شاهد قبر والده يرقد بين

قبور متآكلة فى مقبرة الصدقات لأن ظروفه لم تساعده على شراء مقبرة خاصة . هاجت نفسه متأسية بذلك ، ورهبة الموت تسرق منه ماتبقى من قدرته على تحمل الموقف . فخارت قواه وهبط جالساً قرب الضريح البائس . وعذاب الفراق يثلم وعيه الواهن . وضع يده على القبر كأنه يحاول إيقاظ أبيه من سباته العميق الأبدى .. بدا صامتاً يسرد متاعبه وآلامه . فى أعماقه لوعة شاعر مرهف الإحساس ، فأخذ ينشد قصيدة .. حفظها منذ زمن الدراسة – طالبًا فى إحدى مدارس شبرا – بصوت هامس خفيض . كأنه يحدث نفسه : هبى يارياح الخريف . هبى واعصفى فوق الحقول . واصدمى أيتها العواصف رءوس الشجر وارزمى يا رعود المطر الأسود . تقدم أيها القمر عبر الغيوم الممزقة ، واحسر عن وجهك الشاحب حزن الليالى . وأعد إلىّ ذاكرتى فى تلك الليلة الهائلة المروعة ليلة دعا فيها رسول الموت والدى فسقط وهوى .

وحين يفرغ من همسه يرتمى على القبر يحتضنه باكيًا . يقترب منه أخوه ويحاول رفعه عن الضريح ، لم يقاومه ، استسلم للمحاولة ، شفتاه تتحركان يخرج منهما كلمات غير واضحة غير مفهومة .. ينظر إليه أخوه مشفقًا وقلبه يقطر حزنًا عليه .. فايقظ فيه ذكريات قريبة أليمة بفقدان والدهما . فاندفعت دموعه تروى ظمأ الحنين إلى الراقد تحت الثرى هادئًا يثير فى النفس لوعة الفراق .

مرت الأيام الأولى بعد وصول وحيد إلى القاهرة عصيبة وهو بين أسرته والأحزان تتجدد وتستمر المعاناة النفسية والمواساة . الصغار من أفراد الأسرة تلفهم الحيرة . لايعرفون حقيقة مايجرى حولهم . عيونهم تلاحق الكبار لعلهم يحصلون على بعض مايريحهم أو يرضيهم ويهدئ من قلقهم بعد غياب والدهم الذى يسألون أحيانًا عن سبب غيبته . وهل سيعود ؟؟ الموقف بالنسبة لهم غامض غائم يصعب استيعابه داخل عقولهم الصغيرة

وهم يبعدون عن اتخاذ القرار الذى يملكه كبار الأسرة رغم قربهم منهم فى معظم الوقت . وحين يسمعون مالا يرضى فضولهم المتنامى مع مرور الأيام . ينغمسون في ألعابهم وسط هدوء قهرى فرضه موقف قهرى .

أخذ وحيد فى ترتيب حياتهم بالتعاون مع والدته وأخته الكبرى . قرر أن يبقى بجانبهم ويبحث عن عمل يساعدهم على استمرار الحياة مضحياً بعمله السابق فى تلك الدولة . . لأن الموقف الحالى لايحتمل تأجيل ما اتفق عليه داخل الأسرة بشىء من التصالح مع الواقع الجديد ليجعله محتملاً إلى حين الحصول على الأفضل . شعر وسط اضطراب مشاعره يشوق إلى خطيبته "وفية" وبأنه بحاجة إليها لتقف معه وتساعده على عبور أزمته النفسية الطارئة بوضعه الجديد . . رغم أنها . . جاءت مع أهلها لتعزيته لكنه لم يتمكن من التحدث معها فى ذلك الوقت الذى لم يستطع فيه التهادن مع انفعالاته الحزينة الخادة بعد فقدان والده . وبات مع ظروفه الجديدة وبقائه فى مصر أكثر رغبة فى أن تكون بجانبه وقرر بعد حصوله على عمل أن يفاتح أهلها برغبته فى إتمام الزواج ورغبته فى أن يعرف ردة فعلهم مع الوضع الجديد .. وتمنى أن تكون لصالحه . فإن اضطراب مشاعره فى حاضره .. قد يجعله فى حالة من الفوضى العاطفية التى قد لاتساعده على الوصول إلى شط الأمان ، بعيداً عن وفية التى تعرف مقدار شوقه إليها وثقته فيها كبيرة لحسن تفكيرها وهدوئها وحبها له . كان على يقين من أن ما سيكون بعد ذلك هو لمصلحتها رغم أن فى الحياة من الأمور الغريبة مايثير فى النفس الريبة والشكوك فكثير منها يحدث بعشوائية يصعب التكهن بها . لكن هذه الأمور وعشوائيتها لم تخطر بباله لحظة التفكير بما سيحدث فى المستقبل مع وفية ، تملكه بعض القلق ، قرر بعده أن يذهب إلى منزلها فى حى حدائق القبة وفى داخله بقايا آلام تسكن قلبه وترهف إحساسه فى واقعه المفاجئ الذى أفقده السيطرة على أفكاره . يستأذن

والدته للخروج تستفسر منه عن سبب خروجه . فلم يخبرها بحقيقة نواياه وقال أنه ذاهب للبحث عن عمل بعد أن قرأ إعلانًا عنه لإحدى الشركات الخاصة . لم يكن كاذبًا فقد كان فى نيته أن يذهب إلى الشركة بعد أن يطمئن إلى موقف أهل خطيبته .

هناك تفتح له أخت "وفية" الصغرى الباب وحين شاهدته أسرعت قائلة بصوت عال : ماما ، ماما "أبيه وحيد" . تخرج "أم وفية" مرحبة به ، وهى تعتب على ابنتها الصغيرة التى تركته دون أن تدعوه إلى الدخول . فللطفولة تصرفات تخلو من المجاملة وتتصف بالعفوية . فالأمور عندهم إما بيضاء ، أو سوداء . تستقبله وفية فى غرفة الضيوف الواسعة وعلى وجهها علامة استفهام كبيرة . فإن من عادته قبل حضوره لزيارتهم أن يتصل هاتفيًّا بهم . لم يدم استغرابها كثيرًا بعد أن جلس فى مكانه المعتاد تحت النافذة الكبيرة التى تتوسط الجدار المواجه لباب الغرفة الزجاجى . بادرته قائلة : إن شاء الله تكون أحسن الآن . كيف حال والدتك ؟

– كلهم بخير ويهدونكم السلام . . . .

تدخل "أم عماد" والدة وفية حاملة صينية عليها ثلاثة أكواب من الشاى . . تضع إحدها أمام وحيد على المنضدة المستطيلة القصيرة وهى تقول : لم أنس أنك تحب الشاى قليل السكر .

سألها عن عماد صديقه . الذى توطدت العلاقة به بعد أن خطب وفية أخته وقد سافر للعمل فى إحدى الدول الإفريقية بعد أن حصل على شهادته الجامعية متخصصًا فى اللغة الفرنسية . فأخبرته أنه بخير وسيحضر خلال إجازته السنوية . ثم تابعت كلامها سائلة عن أحوال أسرته وهل سيعود إلى عمله فى الخارج . . كان وحيد يستمع إليها . وذهنه يعمل فى كيفية مفاتحتهم بنيته . وحين سألته عن عمله وجدها فرصة للدخول فى الموضوع الذى أتى من أجله قائلاً : لقد أرسلت إلى المسئول هناك بأننى

لا أرغب فى العودة إلى العمل عندهم وطلبت منه أن يرسل لى مستحقاتى بواسطة صديقى رفيق . الذى أخبرته أن يبيع متعلقاتى وأشيائى ويرسل مايحصل عليه إلى هنا .

أحست أم عماد ببعض الضيق عندما سمعت بذلك وعدلت من جلستها وقالت :

– ماذا ستفعل إذن ؟

– سأبحث عن عمل هنا . فأنت تعرفين أن ظروفنا لاتسمح لى بالبعد عن الأسرة ، ثم إن والدتى ألحت على بقائي بجانبهم وإننى أتيت إليكم لأعرض عليكم أمرًا أرجو ألا أزعجكم به .

مسحت "أم عماد" رأسها بيدها وقالت وهى تحثه على الكلام : تفضل. نظر إلى وفية ثم قال : الحقيقة أننى أحتاج إلى وفية بجانبى .

– ماذا تقصد ؟

– أن نتفق على إتمام الزواج ، مارأيك ؟

نهضت "وفية لكى تخرج من الغرفة . إلا أن والدتها طلبت منها البقاء قائلة : لابد أن تشاركينا الرأى ، فلم تعودى صغيرة . وبعد تردد جلست فى مكانها وهى تقول بشىء من الارتباك : الموضوع واضح وماترينه . أوافق عليه .

شعر وحيد بالارتياح وقال : أفهم من ذلك أن لامانع لديك ؟ تدخلت والدتها وهى تقول : اسمع "يا ابنى" ، من حيث المبدأ لا مانع لدينا . فأنت تذكر اتفاقك مع "أبوعماد" بأن الزواج كان سيتم فى إجازة الصيف . أما وقد أصبح الحال مختلفًا فإننى سأعرض الأمر عليه "وإن شاء الله يصير خير" .

– أرجو أن لا أكون . .

– لا تكمل ، فنحن أهل .

– عموماً كل هذا مرهون بحصولى على عمل ثم بوصول مستحقاتى المالية من ليبيا .

– نسأل الله العون .

تخرج أم عماد ، فيوجه وحيد كلامه إلى وفية

– أخاف أن أكون قد أحرجتك بهذه المفاجأة .

– صراحة . لم أكن أتوقع ذلك ؟ لكننى سعيدة .

– قد تتعبين – فأنت تعرفين – أنك ستعيشين معنا .

– تقصد إخوتك . ليس كما تتصور ، فلن أكون وحدى بينهم .

– نعم . ولكن هذا وضع جديد عليك .

– لاتنسى أننى أحب الأطفال : ولا فرق إن كانوا أبنائى أم إخوتك .

– كنت أود لو أن الظروف أفضل من ذلك .

– فى الحقيقة كنت أحلم بمكان يضمنا أنا وأنت فقط .

– هذه رغبتى لو أن الأمور سارت بلامفاجآت .

– أتمنى أن أكون بجانبك مهما كانت الظروف .

يستأذن للخروج . تودعه أم عماد بتنيهدة مكتومة وفى صدرها رغبة فى أن تكون فرحتها بابنتها فى ظروف أكثر بهجة ورخاء ، لكنها أخفت ذلك فلم يظهر على صفحة وجهها . أما وفية فقد ودعته وفى قلبها فرحة مكتومة لم تستطع الإفصاح عنها حتى لا يُساء فهمها ودخلت غرفتها ونظرت إلى المرآة وسط دولاب ملابسها . تخيلت نفسها عروساً جميلة ، ثم تذكرت أن فرحتها لن تكون كما حلمت بها وسط مظاهر الفرح ومباهجه تحت تلك الأضواء الساطعة . لكنها أقلعت عن أفكارها هذه فحبها لوحيد يعوضها عن كل ذلك . فالمظاهر ترحل وتبقى الأحاسيس الصادقة تعمق الارتباط وتزيد المحبة مع دفء الوصال ، بين جدران المكان الذى ينتظر اللقاء. تمضى الأيام وتهدأ العواطف ويسود التصالح بين المشاعر المضطربة

بين الضلوع . فالتغير سنة الحياة ، يحمل البشر معه فى سعيهم المتواصل للحصول على المزيد من نصابهم المكتوب . يتملكهم الضجر أحيانًا فيشعرون أن الحياة توقفت بهم فى محطة لايريدون المكوث فيها طويلاً ولا يلتفتون إلى أن حقيقة هذا التوقف هو تغير فى حد ذاته يعيدهم إلى بداية جديدة قد يرضون بها أو يرفضونها . إلا أن الحياة تمضى وتتركهم فى ذهولهم .. يتأسفون على ماضاع من عمرهم وهم غافلون . رغم عيونهم المفتوحة .. يستمرون ، يغمرهم وهمٌ كبير بأنهم سيحصلون على ما يبتغون بعد ذلك ، ونسوا فى غمرة انشغالهم أن كل شىء إلى زوال ولا يبقى إلا الله سبحانه وتعالى . أما الآخرون فيعتريهم التغير فى تساوقه المستمر مابين اللذة والألم والحيرة واليقين والخيبة والرجاء يتنقلون عبر واقعهم وأحلامهم وفى أعماقهم أمل كبير يقربهم من واقع يبدو لهم أكثر إشراقًا من أمسهم الذى يضغط عليهم بذكرياته . فيعيشون معها مرغمين . ثم يفيقون على بداية جديدة تدفعهم إلى هروب غير مقصود نحو بحر الحياة فى انحساره الدائم عن شواطئهم وهم يمخرون عبابه بلا شراع بعيداً عن بر الأمان ، أو قريبًا منه ، عبوراً فوق أمواجه بمحض المصادفة .

فى أحد الصباحات المشرقة النادرة ساعى البريد يطرق باب شقة وحيد وفى يده رسالة يسلمها له . يعرف أنها من الشركة التى قدم لها طلب العمل يعطى بعض النقود "حلاوة" لساعى البريد الذى ظل واقفًا يقرأ تعبيرات وجه وحيد ، وهو ينظر إلى الرسالة ويعرف ببديهته أنها تحمل خبراً سعيداً . يغادر بعدها على دراجته وحقيبته البنية القديمة معلقة على مقودها . تحمل فى داخلها أخباراً متباينة لأصحابها . يندهش وحيد للسرعة التى تم فيها الرد على ذلك الطلب الذى قدمه منذ أيام . فلم يكن يتوقع ذلك فى الظروف الصعبة التى يواجهها سوق العمل مع كثرة الطالبين والباحثين عنه .

لم يخف وحيد فرحته بذلك عن أهله وهو يرتدى أحسن ملابسه قبل

أن يذهب إلى مقر الشركة ، داعياً الله أن ينجح فى المقابلة المطلوبة . وحين يصل يستقبله مكتب الاستعلامات ويخبره أن مكتب المدير فى الطابق الثانى . أسرع وهو يصعد السلالم الرخامية . يدخل المكتب ويفاجأ أن المدير أحد الشخصيات الذى تصدرت صوره صفحات الجرائد والمجلات فى أيام مضت وهو أحد أبناء بلدته من قرية قريبة من مسقط رأسه يافا . نازعته مشاعر كادت تدفعه إلى الخروج من المكتب . فقد كان ذلك الرجل معروفًا لديه . تحيط به الشكوك بعد أن انسلخ عن مركز مرموق فى المنظمة بعد أن امتلأت أحشاؤه وهو ينهب مستحقات الآخرين بحجة مواصلة النضال . وهو فى حقيقة الأمر يتاجر بالقضية من أجل مصلحته الشخصية. فاستطاع تكوين ثروة وإلا ماكان صاحبًا لهذه الشركة ومديرها الذى يجلس أمامه فى مكتبه الباذخ الوثير الرياش .

تفحصه خلسة وهو يقلب أوراق الملف الذى قدمه سابقًا . هاله منظر معدته الكبيرة وهى تلتصق بحافة المكتب المغطى بالزجاج اللامع فوق ديباج أخضر . حاول وحيد أن يتصنع الهدوء لكن شفتيه كانتا ترتجفان حين طلب منه أن يذهب إلى "السكرتيرة" لاستكمال إجراءات التعيين وناوله الملف . لم يستطع وحيد أن يتفوه ولاحتى بكلمة شكرًا . فقد كانت أحاسيسه مضطربة مابين القبول والرفض . لم يفعل مثل غيره فى هذا الموقف حين يسرفون فى الثناء مجاملين أصحاب العمل . فقد كان يعتبر ذلك تزييفًا للمشاعر . لكنه لم يقو على الرفض واستكمل مسوغات التعيين توجسًا من حرمان لايستطيع تحمله . وهو مقبل على الزواج وتحمل المسئولية تجاه أسرته ، فخاف أن يقع فى اليؤس ويُغرق معه من ينتظرونه فى متاهات اليأس ، التى قد تؤدى إلى تهور بعضهم فيضلون الطريق ويرتكبون أبشع الأخطاء فى حق أنفسهم وحق الآخرين – حين تتساوى لديهم قيم الأشياء وهم يحملون بؤسهم وشقاء عيشهم تتماثل عندهم الحياة والموت

والشــرف والخـيــانة - فــارتعب من هذه الأفكار وهرول إلى المكان الذى سيعمل فيه داخل الشركة ورضى أن يحيى بشروط غيره تجنباً لمتاعب هو فى غنى عنها فى هذه الظروف الغير ملائمة ورضى أن يعانى وحده .

(١٢)

يتقلب وحيد على فراشه الجديد الذى اشتراه خصيصاً لعروسه بعد أن وصله مبلغ من بقايا مستحقاته أرسله رفيق بحوالة مصرفية . تتجاذبه الأفكار فى الدقائق التى تسبق النوم . تتلاحق وتختلط مع أوهامه فتُضخم مخاوفه . تزداد فى ساعات الليل الهادئة بعيداً عن ضجيج الآخرين فتطفى وتطمس معها تلك الأحاسيس التى تولدت مع أحداث النهار . وعند حلول صباح جديد يكون قد نسى بعضاً منها . حاول وحيد أن يرضى "وفية" قبل ليلة الزفاف فاشترى لها بعضاً من الضروريات رغم أنها لم تبد أية رغبة خاصة . فقد كانت تعلم ظروفه ، ولكنه أصر على أن يُدخل إلى نفسها السرور وإلا ما فائدة الرجل للمرأة إذا لم يعطها ماتريد ، حتى لولم تطلبه ... وبعد حفلة بسيطة هادئة . دخل غرفته وبصحبته عروسه التى قالت له والشوق يغالبها :

- لقد كانت حفلة معقولة رغم كل شىء .
- كنت أتمنى أن تكون أكثر ابتهاجاً . قالها وهو يقترب منها .
- يكفى أننا هنا .
- إنك تستحقين الكثير . ولو كنت فى ظروف أفضل لدعوت العالم كله . يقترب منها أكثر ويقبلها ، يضمها برفق ويساعدها على خلع طرحة الزفاف . قلبها يخفق وهو بقربها ، تمنت لو أن الليل يطول حتى لا يزعجها زائرو الصبــاح من الأهل . كـعادتهم للاطمـئنان على تلك البـداية التى

يحرصون أن تكون حسب التقاليد التى ورثوها من السلف البعيد - لم يفلح التعليم الذى انتشر بينهم فى محو بعضها أو التخفيف منها . بل أضافوا لها وأحاطوها بشيء من التقديس أثر على القيم الشائعة من احترام وهيبة قد تزيد أو تنقص بعد ليلة الزفاف ومايحدث فيها - حتى أن بعض الأمهات يعتريهن الخوف والقلق إلى درجة لا يستطعن فيها النوم حتى الصباح . تتملكهن الوساوس رغم يقينهم أن بناتهن عفيفات طاهرات لكنهن ولتعقد الحياة وفقدان الأمان تظل قلوبهن ترتجف خوفًا من حدوث غير ما يتوقعن لسبب أو لآخر لايتفق مع ماهو مأمول لكي يزداد فخرهن وعزتهن بين جيرانهن ومعارفهن ، حتى بين بعض أفراد الأهل الذين رغم قرابتهم قد ينقبون عن صغائر الأمور ليُضخموها فتكون بعد ذلك سببًا فى الفرقة والبعاد . والخوف من المفاجأة قائم حتى لحظة اليقين التى ينتظرونها خلف الأبواب فيطمئنون على ذلك الكنز الغامض الراقد بين سهول ووهاد لا يُعرف سره إلا بعد انقضاء هذه الليلة . وهذا مرهون بمدى التوافق والانسجام ومهارة ونشاط ذلك المغامر فى درب سلكه الكثيرون بأساليب مختلفة ، فرغم تشابه المفاتيح فإنها لا تفتح كل الخزائن . فقد يطول الانتظار ويكبر الإصرار على مشاهدة ذلك المنديل الأبيض المخضب بعذرية العمر الممتد حتى هذا اللقاء الخفى . المعروف بينهم .

لكن ذلك الحشد من المنتظرين ، ولحسن حظ وحيد ووفية لم يكن موجوداً بالصورة السابقة الصارخة من ملاحقة وتلصص لايخلو من تسبيب الحرج لأولئك المتلفحين بالحب داخل وكنات غرامهم باعتراف ومباركة الشهود والمأذون بملابسه المعهودة . فبعد أن انسحب وحيد إلى غرفته مع عروسه تابعته دعوات الحاضرين بالسعادة والتوفيق وهم يغادرون إلى منازلهم ، حتى أهله دخلوا غرف البيت الخاصة بهم وأوصدوا أبوابها وخلدوا إلى النوم . فلم يشعر العروسان أن عليهم مهمة يجب الخلاص

منها. فلم يكن هناك عجائز جحيم الحياة ليراقبنهما ويحثثنهما على الخلاص من نوبتهما وكأنهما فى ليلة رعب مليئة بأوهام فرسان سرفانتس فى صراعهم مع طواحين الهواء .

مضت ليلة الزفاف بهدوء الارتواء الطويل الذى أطفأ معه ظمأ التعطش الكبير لأحاسيس انتظرته فى فورتها وتأوهاتها المكتومة الهامسة وسط تلك الألام المحببة التى تماوجت مابين مد وانحسار فى لعبة الأخذ والعطاء والأجفان خدرة ناعسة . تحاول أن تنسى كل شىء إلا نشوة اللقاء المتجدد لوصال قد ينتهى . فيبدأ من جديد ، رغم صياح ديوك الفجر الساهرة وكأنها تراقب من بعيد مايجرى داخل جدران البيوت المجاورة وتنذرهم بأن ليلهم على اختلاف دفئة .. قد ... قارب على الانتهاء .

(١٣)

تتوالى الشهور والعروسان ينهلان من رحيق حبهما . رغم غيوم الحياة التى كانت تظهر أحيانًا فى سمائهما لكنها ماتلبث أن تنقشع بعد أن تكتشف أن شمسها قادرة على تشتيتها فيصفو الجو أمامها . وتبدأ حياتهما تأخذ شكلاً جديداً حين همست وفية فى أذن وحيد أنه يقترب من الوقت الذى سيصبح فيه مسئولاً عن أول أبنائه . طار فرحًا وفى داخله صفات رجال الشرق التى تملكته رغم موقفه السابق قبل الزواج حين أعلن "لوفية" فى ذلك الوقت أنه يرغب فى تأجيل الحمل لبعض الوقت . فهو الآن يحمد الله ونفسه راضية . وهو ينظر إلى عيون زوجته الحانية فى لحظة صفائها .

لم يبتعد وحيد كثيراً عن همومه العامة المتعلقة بوطنه . كان يتابع مايجرى عبر الأخبار وأحيانًا من الذين يلتقى معهم من أبناء الوطن فى النادى الذى يخصهم .. يتناقشون ، ينفعلون إلى حد الثورة على كل شىء

من أجل الوطن ، وحين يهدءون يصدمهم الواقع فيشعرون بالإحباط لأنه لا يشجعهم على متابعة آمالهم . فينغمسون فى حياتهم التى تشغلهم أحيانًا عن الالتقاء . يعيدون فى أذهانهم تلك الصور التى اختزنوها عن الوطن من آبائهم ومن وسائل الإعلام . فيبقى حيًّا فى ذاكرتهم مهما طال الشتات ، والتنقل بين المنافى . . رغم أن بعضها أكثر اتساعًا وتحضراً من واقع أرضهم . إلا أن الحنين إليها يجعل المنافى مصدراً للقلق ، والهموم مع تجدد كل تأشيرة إقامة جديدة . كان البعض يحبذ أن يحصل على جنسية الأرض التى يقيمون عليها . ويلعنون الظروف . يتخاصمون إلى حد القطيعة أثناء . . النقاش الذى قد يصل بين البعض إلى حد التشابك بالأيادى . . عند ذلك ينتزع وحيد نفسه ويعود إلى البيت يقص على زوجته بعض همومه . رغم أنها ليست من وطنه . إلا أنها كانت قادرة على تفهم وضعه وهمومه وتشاركه فى كثير من أرائه كأنها فلسطينية بالرغم من كونها مصرية حتى النخاع .

كان يسترعى انتباهه وهو فى طريقه إلى العمل أو إلى النادى الذى لايبعد كثيراً عن مقر الشركة فى وسط القاهرة الصاخب المزدحم دومًا فى النهار أو الليل – الطفرة الحضارية التى اكتست بها الحياة فى هذه المدينة الكبيرة ، وكيف أن هذا التقدم قد انعكس على الناس وأسلوب حياتهم، فظهرت النزعة الاستهلاكية بين طبقات السكان غنيهم وفقيرهم من اهتمامات بالموضة والتيارات "الأيديولوجية" المختلفة فتجرد المتحرر من بعض القيود والتقاليد السائدة جنبًا إلى جنب مع المحافظ عليها . نساء متحررات إلى أبعد الحدود فى ملابسهن الحديثة الملتصقة بأبدانهن إلى درجة يظهر معها اختلاج عروق أجسامهن تحت جلودهن المخنوقة وهى تصرخ مع كل حركة من حركات الجسد بكل تضاريسه وتلك الملابس التى تكشف أجزاء كبيرة من أجسامهن جنبًا إلى جنب مع المتحجبات والمنقبات بلباسهن

الطويل المعروف . وتجد الشبان فى أحدث ما أنتجته مصانع الجينز فى الخارج وآخرون يبحثون عما يوفر لهم الدرجة الدنيا من التمشى مع الموضة فى الأسواق الشعبية بأثمان تتوافق مع دخولهم . رغم شعورهم بالضيق لتلاحق "الموضات" وتتابعها إلا أنهم كانوا يجارونها فى حدود إمكاناتهم . وفئة أخرى فى ملابس عادية لاتعنيهم الموضة ولاتجذب انتباههم . . . مهمومون بأفكار مختلفة خلف لحاهم الطويلة يبحثون عن الخلاص من جحيم الدنيا بالاعتكاف والتزهد وهم يبشرون بقرب النهاية . . .

كان وحيد يفكر أحيانًا ، وهو يقبع على كرسى سيارة الشركة التى توفر عليه عذاب الركوب فى وسائل المواصلات العامة ، والتى يعتبرها صناديق عذاب للبشر تزيد من آلامهم . . فى تلك المفاهيم الغريبة التى تسللت بنعومة إلى الحياة فأصبحت جزءًا من العرف السائد بلا وعى . فترسبت فى أعماق الناس دون تفكير فيما إذا كانت تتمشى مع قيمهم وتقاليدهم النابعة من تراثهم المضىء أم تبعدهم عنه .

(١٤)

لاحظت وفية فى إحدى الأمسيات أن زوجها لم يخرج من غرفة نومهما كالعادة بعد أن أخذ قسطًا من النوم بعد رجوعه من العمل وتناول الغذاء معهم . كانت تتركه لينام وتنشغل مع وليدها ريثما يستيقظ ويلحق بباقى أفراد الأسرة فى غرفة الجلوس الكبيرة حيث اعتادوا تناول الشاى أو بعض الفواكه وهم يتابعون مشاهدة مسلسل ليالى الحلمية وكانت والدته معجبة بدور "صفية العمرى" وهى تمثل "نازك السلحدار" فيشاركهم جلستهم وأحيانًا يعود إلى الغرفة يقرأ أحد الكتب أو مقالاً فى جريدته المفضلة الأهرام . أو يخرج إذا كان على موعد مع الزملاء أو أبناء بلدته فى ناديهم . قلقت عليه حين تأخر فذهبت إليه فوجدته جالسًا على السرير والحزن يقفز

من عينيه الدامعتين فاقتربت منه وسألته : لماذا تبكى ؟ فأخبرها أنه تسلم اليوم رسالة من مديره السابق في ليبيا يخبره فيها أن رفيق قد توفى بنوبة قلبية مفاجئة .. وطلب منها أن تصنع له كوبًا من الشاى بدون سكر وتتركه بعد ذلك لوحده لبعض الوقت .

كانت ذكرياته تنقله إلى قرية "القرضة" وهو يتخيل رفيق فى حواراته معه . فى انفعالاته فى حبه للحياة وحبه لزكية وصوته وهو يغنى تلك الأغنية الحزينة بكلماتها التى تتردد فى أذنه "ياللى بقيت بعيد . اليوم ده يوم العيد . عيدك وعيدى أنا ... لم يكن يدرى المسكين أن القدر يترصده كطير من طيور الموت المنذورة ينتظره وحين يأتى وقت الأضاحى يدفعه فوق صخرة الذبائح ويراقبه كطير يلفظ أنفاسه يدفعه حب الحياة إلى رقصته الأخيرة وسط دمائه . وحين تجف تذروها الرياح وهو باسط جناحيه الصغيرين لتذوب فى باطن الأرض ...

كانت الرسالة وماحملته معها نقطة تحول فى حياة وحيد فقد كان فى داخلها بعض الصور التى عليها اسمه ، نسيها فى غمرة انشغاله عندما سافر من هناك وكان من بينها صورة جارته التى كانت صمام أمان مؤجل فى ذلك الوقت .. لم يعد لها ضرورة فى حياته بعد أن كبرت مسئوليته وهو يمضى فى حياته وسط أسرته التى تحتاج وقته وبجانبه زوجته التى تستحوذ على اهتمامه وهى تحمل بين يديها ابنهما . كان ذلك كافيًا لأن يمزق الصورة بعد أن نظر إليها . ثم يتجه إلى سلة المهملات فى المطبخ ويضعها .. ينتبه أن الهدوء يسرى فى البيت وزوجته نائمة على الكنبة الكبيرة فى غرفة الجلوس وهى تحتضن ابنها .. أشفق عليها .. أيقظها دون أن يفزعها .. اصطحبها إلى غرفة النوم .. تطلعت إليه وهى تأخذ مكانها بجانبه بعد أن وضعت ابنهما فى مكانه فى سريره الصغير . كانت أنفاسها ناعمة . جذبته إليها والليل يمضى فى هزيعه الأخير .

يبدأ النهار التالى والشمس ساطعة .. وحيد فى مكان العمل يراجع ميزانية الشركة . تدهشه الأرقام الفلكية للأرباح - لم يشغل عقله بها كثيراً . تملكه الإرهاق وشعر أن عينيه غير قادرتين على مواصلة حسابات الأرقام . تمنى لو أن صاحب الشركة يستخدم الحاسوب الذى قرأ عنه كثيراً وتستخدمه بعض الشركات الكبرى فى القاهرة . طلب من الساعى كوباً من الشاى وأخذ يتصفح الجريدة . استرعاه عنوان فى الصفحة الثانية عن إعلان لندوة فى الجمعية التاريخية عن الانتفاضة فى الأراضى المحتلة تقام فى المساء، فقرر أن يحضرها علّها تأتى بجديد يضيفه إلى مخزون معلوماته عن بلاده ، وتمنى أن لا تكون مجرد أخبار صحفية تكرر مقولات جاهزة لها دويها فى أسماع الناس ، دون أن تكشف شيئاً عن حقيقة مايجرى . واصل عمله بعد أن استرجع نشاطه وهو يرشف الشاى دون صوت مسموع رغم أنه فى غرفة لوحده فهويعتبر ذلك عادة حضارية يجب الالتزام بها حتى فى وحدته. وكان لايطيق أن يرى أحدهم وهو يعب الشاى بصوت مسموع ممجوج ....

فى المساء . وحيد فى قاعة الجمعية التاريخية بأنوارها الهادئة . لم يكن عدد الحاضرين كبيراً . فالبعض يفضل أن يبقى أمام شاشة "التلفاز" . يشاهد أى برنامج على أن يستمع إلى ندوة علمية أو إعلامية جادة ، فهذا خارج اهتماماتهم . ورغم أن موضوع الندوة يهم أبناء فلسطين فى شتاتهم، فلم يشاهد إلا القليل من أولئك الذين يكتظ بهم النادى فى بعض الأمسيات التى يذهب فيها وحيد إلى هناك ، فأصيب بخيبة جعلته يشعر بالضيق والحرج بينه وبين نفسه .. أخذ يتابع المحاضر وهو "صحفى" معروف. وبعد أن أنهى كلامه الذى لايخلو من فقرات أُعجب بها وحيد . بدأت (المناقشة) .. اشترك فيها عدد من الحاضرين وكاتبان للأعمدة اليومية فى الصحف المصرية كانا يجلسان على جانبى المحاضر .. دار الحوار

إلى أن ذكر أحدهم أن بعض الفلسطينيين يقومون ببيع أراضيهم لليهود كما فعل بعضهم قبل النكبة .. دون أن يعطى أسباباً توضح ذلك . هنا نهض وحيد والغيظ يكاد يفقده أعصابه . استأذن وهو يكبت انفعالاته بأن يوضح باختصار الظروف التى صاحبت البيع الذى لاينكره كفلسطينى قرأ الكثير وعرف الكثير عن هذا الموضوع . وقبل أن يبدأ الكلام طلب منه أحد أعضاء اللجنة المنظمة للندوة أن يعرف نفسه ، فقال بصوت هادئ : وحيد عبد المعطى . فلسطينى . مقيم فى شبرا . ثم بدأ يوضح أن هناك بيع فى الحقيقة لايستطيع أن ينكره رغم أنه فلسطينى . ولكن الواقع والصدق يجبره على الاعتراف بذلك دون شعور بالحرج أو الخجل لأن بعض من باعوا كانوا من غير الفلسطينيين . ففى ذلك العهد ، لم تكن هناك حدود بين الناس تمنع ذلك بما فيهم اليهود الذين كانوا يتمتعون بحق المواطنة تحت الانتداب البريطانى . وكان لبعضهم علاقات جيدة مع بعض الفلسطينيين وأن بعض صفقات البيع كانت تتم بطرق أكثر ذكاء مع بعض الفقراء المحتاجين الذين يُبهرهم لمعان الذهب وهم غافلون بجهلهم . وهذا لا مبرر له إلا شيوع أُمية الشعور بخطورة مايجرى فى الخفاء الذى لم يكن يعلم به الغالبية العظمى من السكان ... إضافة إلى ذكاء السماسرة وطرقهم الغامضة حتى على أولئك الذين كانوا يدعون الثقافة والمعرفة . ولكن لو نظرنا إلى النسبة التى أخذها اليهود بهذه الطرق . هل هى تساوى ماستولى عليه الإسرائيليون بعد ذلك فى الزمن الردىء .حين ساد الصمت والضعف والصفقات المشبوهة ... أرجو أن أكون قد أسهمت فى توضيح هذه النقطة وشكراً . سرت همهمة بين الحاضرين . وتلاشت بعد أن تكلم عريف الندوة قائلاً : أشكرك على الشجاعة التى أبديتها فى هذا الخصوص رغم أن الكثير من إخواننا الفلسطينيين يتملكه الغضب حين يستمعون إلى قضية بيع بعض الأراضى .

يرد قائلا : إذا كنا نريد أن نصل إلى هدفنا وهو استرجاع الأرض والعيش

عليها لابد من الحقيقة مهما كانت مؤلمة .

ولابد من الكشف عن المخبوء في هذا المجال حتى نستخلص النتائج التى تقربنا من معرفة حقيقة مادار ومايدور فى القضية .

علق البعض مابين مؤيد لوجهة نظر القائمين على الندوة ووجهة نظر وحيد والآخرين . وعند الباب الخارجي للجمعية اقترب من وحيد رجل وقدم نفسه إليه ودار بينهما حديث كان هدفه أن يقبل وحيد بالكتابة فى الصحيفة التى يعمل فيها ذلك الرجل . لكن وحيد رفض لأن الصحيفة لها اتجاهات لا تلقى قبولاً عنده واعتذر بلطف فهو فى غنى عن زيادة همومه فى بلد رضى بإقامته بين أهله لحين العودة التى لايعرف متى ستكون ؟ .

فى البيت تخبره زوجته أنها سمعت أخباراً من "التلفاز" أن العراق احتل الكويت . اكفهر وجهه وقال بلهجة يائسة : ألا يكفى مانحن فيه حتى ندخل فى مشاكل عربية نحن فى حِل منها فى هذا الوقت الذى نعانى منه من مشاكلنا مع الاحتلال .

فالاعمال الغير مسئولة لبعض المسئولين تدخلنا فى غياهب من ليالٍ قد تطول ونحن ننتظر بزوغ نهاراتها ...

تستمر الأزمة . يتابعها وحيد وزوجته فى الراديو والتلفاز والصحف ومن أفواه بعض الناس الذين يهتمون بالمتابعة والتقصى . وتتعقد أمورها مابين مؤيد لما تم ومعارض وصامت ، وشعور بالمأساة يتنامى فى داخل وحيد . شعر بالفجيعة حين تبنت قيادة المنظمة موقفاً مغايراً للحق وهى التى تبحث عن استرجاع الحقوق . واستنكر ذلك علانية فى مجتمع النادى واعتبر ذلك خرقًا لأصوليات النضال الواجب والحفاظ عليها . كان يرى أن فى هذه الأزمة تبديداً للجهود العربية والنضالية التى كان يجب أن تتجه إلى المغتصب الأجنبى لا المغتصب من الأهل والعشيرة . تألم كثيراً وهو يرى تطورات الموقف وكان حزنه على الحال الذى أدى إلى مزيد من التفتيت

للواقع والمواقف العربية وإلى تشتيت الانتباه عما يجرى فى الوطن المحتل .. وحين دارت المعارك لاستعادة الكويت وتحريرها . اشتد حزنه على الضحايا من الشعب الذى دومًا يدفع فاتورة الحروب ، بينما يبقى المسئول عنها بعيدًا فى مخابئه الحصينة يتمتع باستنشاق هواء الحرب الملىء برائحة البارود والدماء – ليرضى غروره فى لحظة تصابى فى زمن كهولة متهورة ..

كانت وفية تتابع حالة زوجها فى هذه الظروف العامة الخالية من الأمان وهو يفقد بعض نضارته . ظهر لها كأنه أحد ضحايا الميدوزا فى لوحة جريكول ، وأشفقت عليه فأحاطته برعايتها ودعت الله أن يصلح الحال ويخف شعوره المأساوى بما يجرى . كان يردد على مسامعها أن ماحصل لا شىء فيه لمصلحة الأهل فى الأرض المحتلة ولاحتى فى أى مكان على امتداد الوطن الكبير .

لم يشعر بالارتياح إلا بعد انتهاء المعارك فأخذ يسترجع توازنه السابق وعادت إليه ابتسامته التى فقدت بعض إشراقها فبدت ذابلة ، وهو ينظر إلى أسرته التى عادت إلى جلستها المعتادة أمام التلفاز ، والمذيع يعلن بلهجة واثقة انعقاد موتمر للسلام فى مدريد على أساس القرارات الدولية لمجلس الأمن ٢٤٢ ، ٣٣٨ و ٤٢٥ كان ذلك فى أواخر تشرين الأول .. أكتوبر سنة ١٩٩١ .. والدنيا مازالت فى لباس الخريف .. المذيع مستمر فى كلامه عن المؤتمر ووحيد يتابع وعقله يسترجع بعض ما سمعه عن كثير من الاجتماعات والمشاريع والمؤتمرات .. هز رأسه وهو يهمس لزوجته عن بداية موسم جديد يزيد من مشاعر التعود والتآلف : يبدو كأنه حياة ترتدى أثواب الموت وهى تهوى صريعة لفقدان الأمل . ترد عليه زوجته قائلة : لقد تعودنا الانتظار .. قد يكون المخاض أليمًا قبل خروج الوليد ، فلا تتعجل الأمور .

اللهيب الثاني

نازحون

(١)

نقص التخيل أساس مصائب البشر .. كان مقتنعًا بذلك وهو يتصفح... سجل العمر فى ذلك المساء الرمادى وأمامه على مرمى النظر الأرض وقد أخذت زخرفها واخضوضرت .. تحيط بها بعض التلال الرخوة . ترامت إلى أنفه رائحة طعام العشاء أيقظت فى نفسه التياع الجسد ، وزوجته اللفاء بوجهها العريض ممتلئ الوجنات ، تمسح عرقها وهى تجثو أمام الموقد ، على وشك الانتهاء من تجهيز وجبة من البيض المخلوط بالبصل والطماطم – أكلته المفضلة – قبل أن يحتويه مارد الشبق بعد ذلك فيغلى مرجل عواطفه ، وتَضَرْغَم أحاسيسه وهو يكتسحها فى لعبة الحب المفضلة بعد أن يهجع الأبناء فى فراشهم وقد امتلأت بطونهم من غير طعامه لأنهم يفضلون أن يتناولوا الزيتون والزعتر وأحيانًا بعض المخللات مثل الباذنجان والخيار و"القرعيات" "العجر" التى لم تنضج بعد . كالبطيخ والشمام وهذه المحاصيل موسمية .. يفضلونها على أكلة والدهم المحببة له وهم لايعرفون لماذا يطلبها فى ليالٍ معينة ؟ لم يخطر ببالهم ماتمنحه تلك الأكلة لأبيهم من مقدرة إضافية لفحولته التى تعشقها أمهم . فتتفنن فى طهى ماطلبه وتضيف بعض البهارات مضمونة التأثير . قلبها يرقص ولواطفتها تهتز . تستعجل الموقد ، ليزيد من دفقة نيرانه التى شعرت أنها أقل حرارة من تشوقها المتسامق الذى يشدها إلى سماء حلم التوجع اللذيذ ، وسيقانها الممتلئة تتعرى فى تشاغف مكين وزوجها يغوص فى جوفها ، ينبثق على أصقاعها . فتنفلت من قيود حيائها ويزداد تغانجها . يشتعل تأججه ويتضخم توهج جسده حتى يكاد يصهرها وهى تتمادى فى النشيش ...

كان المنزل فى ناحية شبه منعزلة فى المنطقة السكنية الجديدة فى

الأماكن القريبة من مخيمات وكالة الغوث التى جهزتها ، وبقيت تحمل اسم "مخيم" رغم أن المنازل البسيطة قد بنيت من الأسمنت والقرميد وأُدخل عليها بعض التعديلات كل حسب دخله وقدرته المادية . فأزال البعض القرميد وأبدلوه بالأسمنت والخرسانة وعلى أطراف تلك النواحى فى مكان. يُعرف باسم "جورة العقاد" وكان الجيش قد أخذه للقيام ببعض التدريبات "قبل ١٩٦٧" فسميت المنطقة "بالكتبة" وبعد هزيمة حزيران فى تلك السنة البئيسة ودخول جيوش اليهود المنتصرة ارتأى قائد خان يونس اليهودى أن يقسم أراضى "الكتيبة" إلى قطع صغيرة ويوزعها على الناس الذين يقطنون المخيمات وذلك لتسهيل تحرك قواته فى حالة الاضطرابات والمقاومة ، وأيضاً للقضاء على ذكرى تتعلق بالمكان قد تزيد من المشاعر الوطنية وهو قائم . لم يتعرض للاغتصاب أو التغيير بصورة أو بأخرى . . .

كان البيت يحمل معه عبق الوطن بأهله وأرضه ومائة . . فيه أثر الأجيال التى عمرت المكان وكافحت وقاتلت على مر الزمان . . التصق أديمهم به والقرون تعبر والسنوات تمر ، والغزاة ينفكون منه ويرحلون موجة إثر موجة تتباين فترات احتلالهم الثقيل . لا تهضمهم الأرض ولا يتقبلهم الناس غرباء أينما حلوا تفضحهم بشرتهم ، وتشير إليهم لكنتهم . يحملهم البحر فوق موجاته بعيداً ، بعيداً بلا أسف . . تعاودهم أطماعهم فى أرض «السمن والعسل» والزيتون والبرتقال .

يتوافدون على استحياء فى البداية ثم يتوحشون . فيمضغون لحومنا ويشتتون ويقتلون ويهزمون . تساعدهم الشياطين فيغترون ويعربدون . . يتخيلون أنهم "الحضارة" وسط البداوة واليباب . . يترمزون بالارتقاء كأنهم "بروميثيوس" رمز النور القائم فى "جنتهم" . والآخرون جحيم . . .

تعجب والأشباح تتخفى بالظلام وراء الأسلاك الشائكة تقطع الوطن تحزه بالسكين والدم واحد فى شرايين الأرض . يرحل الأحياء ، ويبقى

الأموات فى رحمها ... وخلف كل ذلك تبقى روح الذكريات لا تتأثر بما يجرى كثيراً .. وكلما اقترب من الحدود اتضحت السهوب المتواصلة بلا انقطاع طبيعى . محتفظة بفطريتها لم تخربها حضارة المأفوفين . وهو فوقها، يشعر أنها مازالت تحتفظ بزخم الماضى ، تلك الروح الميتافيزيقية التى تبدو خلف الأنظار تمنح الانبهار لتلك النفوس الغريبة عن أشباحها فى حياتها الخاصة القصية ، تحط على نخبة من البشر ليبقوا شاهدين على تاريخ يحفر قناته فوق صفحات لم تكتب بعد ... تنتظر حضور الأمانة لتملى الحقيقة وتمحو ما كتب بقايا مواخير الوضع الراهن . أبواق قوى الظلام والخوف من مجهول الهيمنة والعولمة وجديد أسياد التنظير من أمثال الأمريكى ذى الأصل اليابانى فوكوياما من أن الرأسمالية هى نهاية التاريخ . وإن الغلبة للرأسمالية الأمريكية على الرأسمالية الاحتكارية الماركسية . وصدام الحضارات بدعة هانتجنتون مابين المسيحية والإسلام والكونفوشية وغيرها .. وتدجين الطابع القومى للشعوب الصغيرة ليتواءم مع الحضارة الأوروأمريكية وصياغات قديمة ، يسارية ، فاشية ، نازية ، ديمقراطية ، وطبقية وقومية وبراجماتية عملية ... أحاديث وأحاديث .. والقطار يمضى لا توقفه المثاليات ولا ينتظر الابتهالات . عالم من المستحيلات يخصبه خيال الأفكار البعيدة عن الواقع وحقائق الصراع تتراوح مابين القول والفعل، وقواعد اللعبة الدولية فى تغير دائم .

رغم بساطة حياة محمود عسقلانى فإنه تأثر وذهب إلى "السوبر ماركت" الجديد الذى حضر افتتاحه وجوه البلد ومندوب عن "السلطة" ليؤكد حضورها .. استطاع أن يدس نفسه ليرى ماتعلن عنه شاشات "التليفزيون" من بضائع تؤكد على أن "الهجمة الأخيرة" لأسياد العالم قد حدثت لتجعل الاستهلاك حتى فى بيته يتبع تنميطًا جديداً بالشكل الذى يستخدم فيه كل مايرغبه الآخرون ويخدم مصالحهم العالمية المسيطرة

وبالذات الشركات متعددة الجنسيات . .

هرش معدته ذات مرة وهو يتابع السلع على رف الأسواق قرأ : نيس كافيه ، مياه معدنية ، مأكولات شوس اليابانية ، كاسيت موسيقى أمريكى، هامبورجر ، سوسيس ، بوب كورن . شعر أنه أصيب بالحَوَلْ . . وهو يتحسس جيوبه المسكينة – تحثه على الخروج لأن مايراه ليس له – إن مايستطيع أن يشتريه هو الجبنة والزيتون والزعتر والدقة ، من عم مصطفى البقال ، ورائحة أكوام البصل تغطى على كل العطور المستوردة التى "رش" منها فى "السوبر ماركت" على سبيل الدعاية . . . كان الراديو الحزين فى البقالة ينوح بصوت فريد الأطرش : ليت أنى مت من الأزل ، لم أعش هذه الحياة . عشت فيها ، ولم أزل . شاهدا أنها حياة . . . أنا وهْمْ . . أنا سراب . .

كاد أن يذرف الدمع . لكن منابع الدموع تشنجت وهو يقبض على رزْمَة من الفجل الأخضر ونصف كيلو من الجبن ومثله من الزيتون وعندما تذكر أنه على موعد معها فى هذه الليلة اشترى بعض البيض والطماطم وكان البصل لاينقطع من البيت فهو زبون دائم له . . .

(٢)

كان سمير عسقلانى الابن الأكبر لمحمود قد تعرض لعملية مؤلمة فى القلب استبدل فيها شريانه التاجى فآثر الهدوء دون أن يبدو عليه أنه مرزوم بالمرض . لكنه تخلى عن كثير من العادات التى تسبب له الإرهاق السريع وارتضى حياته بعيداً عن تعب الرياضة العنيفة التى كان يحبها مثل المصارعة والملاكمة واكتفى برياضة المشى التى أشار إليها الطبيب بعد أن نجحت العملية . كانت حياته وسط عائلته لاتخلو من الهموم . فكل اهتمامه انصب على الفلسفة والأدب رغم أن تخصصه الذى قضى فيه أربع

سنوات فى الجامعة بعيد عن اهتماماته . درس الكيمياء لأنها برأيه تفسر له كثيراً من الظواهر التى تحدث أمامه ولايجد لها تفسيراً وبالذات تلك التى تتعلق بتكوين الإنسان البيولوجي . فعندما طلع "كمبل ويلموت" الأسكتلنديان" على العالم باستنساخ النعجة "دوللى" والتى أخذت دوراً مبهراً فى الإعلام . جلس كعادته وبهدوء يسترجع ما قد درسه عن التركيب الكيميائى للكائنات الحية وأن المادة الوراثية أو التراكيب الجينية هى واحدة فى جميع خلق الله من الأحياء فهناك أربع قواعد يقوم عليها بناء الحامض النووى منزوع الأكسجين "DNA" هو المادة الوراثية أو التراكيب الجينية فى كافة الكائنات الحية .. رغم اختلاف صور البشر والكائنات الأخرى . فالمادة الكيماوية الوراثية للبشر والنبات والحيوان لا تختلف على مستوى التركيب الكيميائى فلا اختلاف بين أجمل النساء وأقبحها مابين "سعاد حسنى" وغيرها أو بين حسين فهمى وغيره أو بين كازانوفا بفحولته وبين من يشتكى العنة من الرجال .. لكن هناك مايتحكم فى التراكيب الجينية لتبدو الأشكال والصور مختلفة وشتيتة . ذلك يرجع إلى مايطلق عليه التعابير الجينية لذات التراكيب الجينية المتشابهة "التراكيب الكيميائية" . أخذ يفكر فى ملكوت الله بحسه الإيمانى المدعم بالعلم وأن التعابير الجينية خلال عمليات انتقال الإنسان بخلاياه الحية من صورة إلى أخرى غير رجعية. وأنها لو كانت رجعية لحدث انتقال من صورة الشباب إلى صورة الصبى أو الطفولة . ولتلاشى الإنسان إذا مارجعت العلقة إلى النطفتين كما بدأت .. ولو كانت التعابير الجينية رجعية لما كان ثبات "أنواع الخلايا" فى الجسد الواحد بعد أن تكشفت ولأصبح من الممكن أن تقوم خلايا المعدة بوظائف خلايا الكبد ، وخلايا البنكرياس بوظائف العين .. جاء بعد ذلك فى الأخبار أن مبادئ الشيخوخة قد ظهرت على دوللى المستنسخة بعد سنتين من عمرها ...

أستغفر الله ... وهو يقول لن يستطع البشر أن يفعلوا كما فعل الخالق العظيم . لن يستطيع أحد أن يحقق دوام الشباب أو الصحة ويعيش خالداً.. وأن تكنولوجيا الاستنساخ ماهى إلا فصل فى مسرحية الحياة لتأكيد الهيمنة وترسيخ مفاهيم العولمة ليتقبلها الناس وكأنها القدر الجديد.. الآتى من أوهام أرستقراطية الفكر المسيطر القادم مع رياح الغرب وموسمها الصاخب فى محاولتها لقلب الموازين الثابتة وتحطيم الحلم السرمدى للعالم المتهادى نحو النهاية التى وضعها خالق الكون .. دون أن يعلم موعدها أحد غيره ... ...

شعر بالغبطة حين توصل إلى ذلك وهو يجلس فى مكانه داخل الصيدلية التى يعمل فيها ... أخذ يفكر بالواقع من وجهة نظره التى كونها من قراءاته الفلسفية والأدبية . توصل إلى أن الحب الحقيقى يستطيع أن يطهر البشر من شرورهم ، ويجعلهم يتعاطفون ، فلا يكون الظلم شريعة بينهم . يحترمون الحقوق دون أن يغتصبوا الآخرين لمجرد أن "ماعندهم" له بريق يُغرى بالاقتناء حتى لوكانت القوة هى السبيل إلى ذلك .. دون التذرع بحسن النوايا . يجب أن يكون الفارق واضحاً بين حسن الظن والإثم ...

اقترب أكثر من وضعه الراهن وهو يعيد فى ذاكرته ماقرأه عن اليهود .. بأقلام غير العرب مثل جون وبستر فى مسرحيته "دوقة مالفى" .. وبن جونسون وتوماس ديكر : من أن اليهود لايستطيعون الابتعاد عن التآمر .. لقد أشار البعض إلى ماقام به لوبيز الطبيب الخاص اليهودى للملكة إليزابيث حين حاول قتلها بدس السم لها فأمرت بإعدامه .. شرع الكثيرون من الكتاب الإنجليز بتصوير اليهودى كشخص قمىء مقيت ، ومثير للاشمئزاز... كان يحب تشارلز ديكنز لأنه صور اليهود وهاجمهم فى روايته الشهيرة أوليفر تويست وصور اليهودى "فاجين" على أنه زعيم عصابة ..

كان يكره الروائية جورج اليوت التى تحمست لليهود ودعت إلى إنشاء وطن قومي لهم في بلده فلسطين وبالذات حين مجدتهم في روايتها "دانييل ديروندا" . اكتشف ما للمثقفين والكتاب من دور في التمهيد للحدث السياسي لأن هذه الروائية قد سبقت تيودور هيرتزل بنحو عشرين عامًا في الدعوة إلى انشاء وطن قومي لليهود في بلاده . . . شعر ببعض الغيظ رغم أنه بعيد عن النشاط السياسي في الآونة الأخيرة . لأن جسده لم يعد يتحمل الاعتقالات في ظل عسكرية لم يكن لها مثيل في العالم حين علم أن هناك شرطي لكل خمسين من أبناء بلدته . في حين أن في أمريكا هناك شرطي لكل أربعمائة مواطن أمريكي . . مع فارق الرقعة الشاسعة من الأراضي في أمريكا وتلك المساحات الضيقة التى يعيش فيها الفلسطينيون الذى ينتمي إليهم . . اعتبر أن مجرد الاقتراب من صخب اللحظة السياسية هو تدمير لتلك القيم التى يحتضنها ففى داخله روح الأديب المغلفة بالسلوك الخلقي ، وأن مايهتم به تلك اللغة الروحانية التى يتعشقها في الإبداع الذى يمن الله به على بعض عباده فيمنحهم لحظات التنوير التى يعبرون فيها عن أمور ليست جزءاً من الرؤية الجمعية ، لكنها تخص التفرد الروحاني للنفس البشرية . . كان يكره التصفيق والصخب العدمي الذى يقوم به الشعب تحمسًا لبعض الأفراد الذين ساعدت الظروف على ظهورهم . فأثاروا مشاعر الدهماء الذين انساقوا وراء البريق المؤقت الذى بهرهم في موسم العتمة . . . وبعد قليل وقت أهملهم أولئك المؤتلقون . فتحركوا من بقعة الضياء إلى اللاشيء بعد أن زاد الضياء حول الآخرين فظهروا كأنوار تسبح في الفضاء ، كل واحد تحيط به هالته دون أن تجمعهم مجرة واحدة . . فاحتار أفراد الأمة وهم يعيشون حياة تشيع في النفس الرثاء وهم يتنفسون الهواء الرطب الممزوج بغبار المواكب الزاحفة دون أن تلتفت إليهم أو حتى تعترف بدورهم السابق في دفع تلك العربات الجانحة لتصل

إلى محطتها وهم يستمعون إلى خبط الليل فى فراغ الحياة ، بعد أن تركوهم وهم يلهثون للحاق بهم بعد أن تشعبت .. وهى تبتعد كعوالم صغيرة فى سماء بعيدة ...

لَفَّهُ الظلام حين انقطع التيار الكهربائى فجأة ، عبرت أفكاره ضباب الليل ، بعد رحيل الأضواء بدت الأشياء والسيارات أمامه أشباحًا تختفى باتجاه الريح وهى تعدو فى الظلام بأضوائها كأنها عيون القطط الآتية من عالم غريب لايعرفه فانساق وراء سلواه يُجسد صورتها أمامه . امرأة ممتلئة الصدر موفورة الحيوية. لايقدر على مجاراتها وهى تطارده بعينيها كلما خرج من بيته إلى عمله فى الصباح ، أو بعد العصر فى وردية ثانية من العمل الذى كان يقوم به من أجل أن يعيش دون أن يشعر بأى إحساس مريح نحوه ... كان يتمنى أن يحتويها . لكن يده اليمنى تسارع قبل أن تنضج تلك الأفكار وتتجسم . لتحط على الجهة اليسرى من صدره .. فيكف عن الاسترسال ويضغط على أسنانه ملتاعًا .. لأنها كانت جميلة وتستحق المتابعة . لكن حالته لاتساعده . لم يكن يستطيع أن يتوقف عن التفكير بها عندما يكون مع نفسه وحيداً فيبدو سامقًا مرتفعًا . أما عندما يكون مع الآخرين . فلا أحد يقدر أن يفهم مايدور فى ذهنه .. يظهر لهم منيعًا كالبحر لا أحد يأسره أو يوقف موجاته أو حتى يقلل من مده أو يزيد من جزره .. ورغم ذلك كان رجلاً اجتماعيًّا . يجامل الجوار فى الأفراح يشاركهم لياليهم المليئة بالسرور بنفس راضية . ويذهب إلى مآتمهم والحزن يدفعه رغمًا عنه لأنه يعتبر ذلك واجبًا ثقيلاً .. لا لشىء إلا لأنه يرى الوجوه وقد لبست قناع التستر والزيف وبالذات أولئك الذين يعرف مشاعرهم المكشوفة السابقة نحو الراحل إلى بوابة الأبدية .. لكنه كان معروفًا بارتباطه بالأرض التى نشأ عليها . يشم عطرها الذى يختلف عن غيره من عطور الأرضين .. لأنه ينبع من حضارة خاصة قامت فوق الكثير

من الحروب والمعارك ، فتلونت بصبغتها المتفردة التى يعرفها القادمون من كل الاتجاهات من شذاها الذى تحمله الرياح وهى تعبر البحر والسهل والجبل ، وتقف قليلاً عند الوادى العميق... تلقى ما يخص الأرض - حتى تحفظ لها خصوصيتها - ثم تعبر إلى الأصقاع الأخرى ، وهى تحن إلى الرجوع لتتعطر من جديد .. فى داخله اعتقاد راسخ أنه ابن الحضارات كلها التى ازدهرت فى فلسطين وحولها .. من فرعونية وكنعانية وفينيقية وأشورية وبابلية . التى صبغت الحياة على الأرض التى يقيم عليها الآن ، وشعور بالألم ، وهو يرى الآخرين يحاولون أن يختزلوا وجوده كصاحب الوطن . يحاصرون ويقتلون وينتقون ويمزقون رقعة الأرض إلى كانتونات تلتف حولها الطرق ويعشش فيها الخوف . مستوطنات كثيرة ستلفظها الأرض فى قادم الأيام عندما تنقشع غيوم التراكض نحو تخوم الهجمة الجديدة بأساليب لا تحقق الكثير من أحلام الشعب الشريد ... كان يؤرقه أن يصبح الوضع الراهن هو ماسيكون .. والهرولة بحجة أن الوقت يقتل الأمال ويميت الأحلام . تناسوا أن من يأكل لحم الإبل لاينسى ظلم الغير .. ينتظر حتى يحين الموعد للانتقام . التاريخ لايغفل ، كم من أسباب صغيرة أشعلت نيران الحروب : داحس والغبراء دامت أربعين عامًا .. فما بال من قدموا من وراء البحار ينتهكون بكارة الأرض . يدوسون القيم الثابتة العريقة ينشرون أساطير لا سند لها من الحقيقة أو التاريخ ، فى نفوسهم شر الظلام وفى أيديهم أسلحة الدمار . لكن الأمل باق فالشهوة لاتدوم طويلاً والأطماع تحيق بأصحابها . والحق باق يعلو فوق صوت الأسطورة والخيال فالفارس قادم يحرر الديار ويعيد إليها عذوبة الماء وخضرة النبات . فالفارس آت والسيف عهد الزمان والشرف فى عصر الغدر والقتل من خلف الظهور. لن يكون النصر حليف كولومبوس الجديد . فأرضنا تعرفها العصور . لن ينجح الغازى الجديد وهو يعيد الهجمة من جديد . سلفه قتل ثلاثين

مليونًا في غفلة من التاريخ ، نقل الحضارة التي تعلمها من الجدود - وهنا ، الجذور لم تمت رغم الخنوع .. قد تنتهي سنوات لكن الحق لن يموت .. تجمعت كل خيوط الزمن في رأسه وهو ينسج الماضي مع الحاضر في وقت الثبور . ورقعة التاريخ التي نسجتها عقول الأمة دون أن يفكروا فيها . وهم يعيشونها . لأن نضال الأجيال السابقة من أجل الحرية قد ترك بصماته في أفكار الأجيال اللاحقة .. الأطفال يستمعون إلى فظاعات الماضي التي قامت بها عصابات الشتيرن والهاجاناة . بن جوريون وبيجن وغيرهما يستمدون الفخر من القسام وعبد القادر الحسيني وعبد الرحيم ومصطفى حافظ وأولئك الشهداء والجنود المجهولين ... يربطون ذلك بحاضرهم وماقام به بيريز في قانا ونتنياهو الذي كان يفرك يديه فرحًا كصبي صغير ، وثلاث عشرة طائرة تشتعل في بيروت في ٢٨ - ١٢ - ١٩٦٨م ذاكرتهم قوية لاينسون ماقاله الآباء وماقصته الأمهات على آذانهم وهم يواصلون .. يشاهدون . يتذكرون أن باراك هو قائد عملية فردان التي قُتل فيها كمال ناصر وكمال عدوان ومحمد يوسف النجار وهو الذي أبعد أكثر من ٤٠٠ مناضل إلى جنوب لبنان .. الشعر له منابت .. مهما قصوه ينبت من جديد هكذا تاريخنا في العقول له جذور لن يفيد تدمير ٣٧٠ قرية من قرانا التي تقف شاهداً على الوجود . لن يفيد تحويل مسجد عين حوض بالقرب من حيفا إلى خمّارة .. لم يتذكروا كرم ضيافة أهالي القرية العرب المسالمين عندما وصلت خمس عائلات سنة ١٩١٨ ، حفاة عراة فأكرموهم ووضعوا حارسًا لحمايتهم لأنهم يهود والمشاعر ترق في لحظة الضعف الإنساني وتتباعد الأحقاد ... وبدلاً من الاعتراف بالجميل لم يلقوا منهم إلا تباراً .. فلحظة النصر تولد الغرور وتخدر الشعور .. نسى كواسر العنف كل ذلك وبدأوا في بيع أحلامهم لشعوب سلبوا منها أحلامها فعاشت واقعًا مليئًا بالألم والخراب يوارون ماتبقى لديهم من أحلام . . يتوسد المظلوم

أحلامه . . كلما اتسع الحلم فى حياة الشقاء كلما ضاق المكان واشتد فى النفس الأمل فى أن ينجلى ذلك الغسق الكئيب الذى نشره شياطين البشر ، وهم يوغلون فى "هامارتيا" خطتهم المأساوية الفظيعة . يستمع الأطفال ويرضعون الفاجعة . . قوافل الشهداء يقودها عياش والوزير وعدوان ودلال المغربى . . الثورة مع كل جيل فى القلوب . شهداء الثلاثينات والثمانينات فى الانتفاضات فى القرن العشرين . تصبح الحكايات لذة الصغار ، وتغدو للكبار حافزاً إلى المزيد من العطاء رغم الجوع والبطالة ، هم يفتخرون بقطائع جلد الوطن يقيمون عليها بثورهم ونحن نكتوى بها ونربى الحقد فى النفوس . . حتى لا يخبو الأمل فى النصر القريب . .

أصابته غصة حين تراءت له تلك الأرقام الفلكية التى ضاعت بعيداً عن تحرير الوطن فى لعبة الدمار التى لامكان لها والجرح نازف فى قلب الجسد الممتد مابين الخليج والمحيط . . لم يصدق أن حرب الخليج الثانية لتحرير الكويت من عبث سياسة الفروسية الكاذبة قد كلفت ٦٧٦ بليون دولار . . كاد عقله أن يشت وهو يرى الفقر يمشى فى شوارع مدينته وغبار الخيل فى زهو العصور تلونه بقايا القهوة العربية على موائد الكبار وهم يجتمعون يتسامرون يتثاءبون ثم ينامون ، والنازحون يحلمون بدلاً عنهم بالرجوع إلى مراجعة قواعد اللعبة ليعرفوا الفرق بين الذكاء الواعى فى عقول الناس وإرادة البعض الوضيعة تجاه مايحبون . وهم يعلمون فى الوقت نفسه أنهم يتجهون نحو الهاوية وهم غارقون فى سعيهم نحو إشباع غريزتهم التى تأسر عقولهم الواعية على الرغم من اقتناع عقولهم اللاواعية بكل العيوب المصاحبة لفعلهم الذى قد ينتهى فى لحظة إشباع قد تكون فيها النهاية قبل أن يفيقوا ويشاركوا فى لعبة بدأها غيرهم فانساقوا يتابعون ويعترضون ، دون أن يدركوا أن من يعرف قواعد اللعبة قبل المشاركة فيها لايحق له الاعتراض عليها خلال اللعب .

(٣)

كان من عادة «أبوسمير» أن يطلب من زوجته دليلة ، ابنة عمه ، أن تحرق بعض البخور فى يوم الجمعة قبل خروجه للصلاة . وأحيانًا يأتى بالشيخ "حسين البطاح" ليقرأ بعض آيات القرآن الكريم تبركًا وتفاؤلاً نظير بعض المال ، لأن الشيخ البطاح يتعيش من "تلاوته الجميلة" – لما تيسر له من القرآن... إذا لم تكن نوبة الشيخ فى ذلك اليوم كى يقرأ فى المسجد الكبير الذى يقع فى مواجهة قلعة الملك برقوق فى وسط خان يونس .. فقد كان يتناوب على ذلك بعض الشيوخ الآخرين ...

يشتد الطلب على المشايخ المقرئين فى شهر رمضان الكريم فيروج عملهم ويتبغددون دون أن يتمنعوا بقصد زيادة الأجور الضئيلة التى يتقاضونها عندما يقومون بعملهم فى المساجد وداخل البيوت أحيانًا .. كان محمود عسقلانى يحب ليالى رمضان ليستمع إلى الدروس الدينية التى يلقيها بعض مشاهير رجال الدين فى خان يونس مثل الشيخ "البطة" و"الأغا" وغيرهما . وأحيانًا يأتى أحد الشيوخ من مصر وبالذات من الأزهر الشريف . ويُسعد الناس قدوم أحد المقرئين المشهورين أمثال الشيخ عبد الباسط عبد الصمد أو الشيخ مصطفى إسماعيل . وحين يحدث ذلك يتجمع خلفه جمع غفير من الناس يستمعون ويطلقون صيحات الإعجاب قائلين : الله . الله . الله يفتح عليك يا شيخ ... وكان ذلك من عادة الناس. لم يلتزموا بقول الله سبحانه وتعالى : «وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون» كان وجدهم يدفعهم إلى ذلك ليس بقصد المعصية فهم لا يضمرون ذلك وهم البسطاء . لكنها عادة لازمتهم ...

فى هذا اليوم لم يكن أبوسمير مرتاحًا .. فقد جللت سماء فكره سحابة من الهموم ... بعد أن قصفت مدفعية العدو بلدة بنى سهيلا على الحدود الشرقية لمدينة خان يونس واستشهد بعض الناس الأبرياء سنة ١٩٥٥ م .

كانت مشاعره لا تختلف كثيراً عن مشاعر الناس داخل قطاع غزة . الذى يتعرض على التوالى للعدوان كلما قام الفدائيون بعملية عبر الحدود داخل الوطن المحتل . . . وبالذات حين تسلم قيادة الفدائين القائد "مصطفى حافظ" فقد استطاع أن يجعل العدو يشعر بعدم الاستقرار فى المناطق التى احتلها وخصوصاً تلك المستعمرات القريبة من قطاع غزة والممتدة فى قلب منطقة النقب قرب بئر السبع . .

ورغم أن الخسائر البشرية والمادية كانت أكبر فى الجانب الفلسطينى عنه فى جانب العدو إلا أن العمليات لم تتوقف لأنها ضرورية لكى يشعر العدو أنه مغتصب ولايحق له أن ينام بهدوء فوق الأرض السليبة .

عندما تلفعت الدنيا بمرطها الداكن وقبل أن يستحلك الليل حمل محمود عسقلانى رشاشه وأخذ بعض الذخيرة فى جعبته حملها على كتفه وتوجه إلى أخدانه . . .

كان الناس يحيطون الفدائيين بالاحترام والتبجيل ، يصل ذلك أحياناً إلى مشارف الأساطير وهم يتحدثون عنهم وعن أعمالهم داخل أراضيهم المحتلة . كانت هناك أسماء تحيط بها هالات الإعجاب يتلقطون أخبار أصحابها ويطمأنون عليهم إذا تأخر أحدهم ولم يرجع مع الآخرين . لأن الطريق ليس آمناً . . فيكمنون لبعض الوقت ثم يواصلون المسير إلى بيوتهم. بعد أن يمروا على قيادتهم فى خان يونس التى تبلغ القيادة العامة فى غزة . . وكان من بين تلك الأسماء سعيد النجار وأبوسلمية والحداد . . . وغيرهم ، وكان الأطفال من كثرة ماسمعوا عنهم يتمنون لو يقابلونهم ليتأكدوا من أنهم مثلهم لايختلفون . . أم أن لهم صفات تثير العجب مثل تلك التى يسمعون عنها فى قصص ألف ليلة وليلة . . وغيرها من قصص الأساطير المحلية التى يقوم فيها الأبطال بالخوارق والعجائب من الأعمال التى لا يستطيعون القيام بها لأنها أكبر من قدراتهم أو من قدرات من يحيطون بهم

من الناس ، كان الفدائيون رغم شيوع أسمائهم لايعرفهم إلا القليلون كاحتياط أمن واجب ، لأن العدو له عيونه حتى داخل قطاع غزة ، فالنفوس الضعيفة لاتختفى بل تبقى كالنباتات الطفيلية تعيش عالة على غيرها لطبيعتها التلصصية الضعيفة رغم ما ينتج عنها من أخطار كلما تمادت فى نموها . كانت معظم العمليات تتم بعد مساء يوم الجمعة حيث يهجع اليهود فى انتظار سبتهم - يوم راحتهم - فيقل حذرهم رغم وجود دورياتهم تجوس الجوار ، لكن ذلك لايكون بقوة الأيام الأخرى . كان الفدائيون يقومون بمثل ماكان يفعله العدو حين يهجم على قرى ومدن قطاع غزة المحدودة والمعروفة لعدم كثرتها فقد كانوا يأخذون معهم أجزاء من أجسام الشهداء مثل الآذان والأيادى . وأحيانًا الرءوس إذا كان الشهيد من المطلوبين البارزين المعروفين بنشاطهم الكثيف ضدهم ...

أبو سمير وراء بعض الأشجار مع زميليه داخل أحد الأودية ، جميعهم فى حالة ترقب وحذر ، أصابعهم على الزناد بعد أن سمعوا أصوات مركبات آلية قريبًا منهم على جانبى الوادى ... الليل يوغل فى سواده والقمر فى المحاق وضوء النجوم باهت ضعيف .. كانت عملياتهم لاتكون إلا فى أواخر الشهر الهجرى العربى ... والجمعة موعدهم فى ذلك الوقت . كانوا يعرفون دروبهم حفظوها من كثرة ما ارتادوها ، لايطرقونها على التوالى بل ينوعون فى كل مرة ، بعد أن يسترشدوا بمعلومات قيادتهم عن تحركات العدو .. ونادرًا ماتخيب وإن حدث غير ما توقعوا يغيرون خطتهم ويكمنون وقتًا أطول . مما يزيد القلق عند أهلهم ولدى قيادتهم ..

تبتعد الآليات . يتحرك محمود عسقلانى ببطء .. وعيناه على اتساعهما يهتدى بالنجوم كما كان يفعل الأسلاف وهى تدلهم على أطراف الأرض وأقطارها فسلكوا بها البلاد ونشروا الضياء أينما حلوا ومشاعل حضارتهم فى أيديهم ...

تسحبوا .. ينقلون أقدامهم بحذر وخفة ..حتى لايقلقوا دواب الأرض ولا يُسمعوا أعداء الخير وحلفاء الشر . كان الثلاثة يشعرون أنهم يسبحون في بحر من الظلام يمشون على هدى قلوبهم والسماء ترعاهم . أحسوا كأنهم سرب من أسماك السلمون يعودون بعد رحلة طويلة من المحيط إلى موطن رأسها في الأنهار العذبة لتتوالد وتزيد دون أن يشعروا أنهم قد ينتهون . الأقدام تتناقل ، الأجساد بخفة دون كلل تعرف طريقها المرسوم ، كانت التعليمات واضحة في عقول الثلاثة أن القتل للعسكر والجنود وحراس المستعمرات تمامًا كما كانت تعليمات الأجداد في فتوحاتهم ، والإسلام في الصدور حيًّا وقائداً .. لا مساس بالأطفال والنساء والشيوخ إلا من كان منهم قد اشترك في الأذى وكان مصدراً للخطر يساعد الآخرين للقبض على الفدائيين أو قتلهم ورغم أن العيون قد أسدفت والليل ينتصف فمازال الهدف بعيداً .. طلب منهم قائد المجموعة أبوخليل أن يسرعوا فالمكان خال من محاذير الخطر . لا صوت ، السكون ممتد في المكان .. تفرقوا بعد أن اتفقوا على مكان الالتقاء . . .

أبوسمير يقرأ بعض الآيات من ضمنها آية الكرسي يتفاءل بها .. تنقله أقدامه ، وعيناه على قدر ما يمنحانه من رؤية يتحرك . . . ينزع قنبلة يلقيها- ينبطح . يزحف .. يلوح له طيف رجل يركض يعالجه برشاشة يسقط يرتطم جسده بالأرض . . . ينتظر . . . يسمع صوت طلقات متقطعة يدرك أن أحد خدنائه قد اشتبك مع العدو . يشعر ببعض القلق وهو مازال ينتظر أن يخرج آخرون .. زحف ، اقترب من جثة القتيل كان جسده ساخنًا ، والدماء اللزجة تحيط به ، علق بعضها بكفه مسحها بالجثة اقترب من الرأس راودته نفسه أن يفعل مثلهم ويقطع أذنًا أو أنفًا . لم يفعل . . . بيانات العدو ستكشف كل شيء ولاداعي لبرهان على أنهم أدوا واجبهم وقاموا بالعملية . فالثقة متبادلة كالعادة مع المسئولين ، اكتفى أن يأخذ

السلاح الذى اكتشفه يلمع تحت ضوء النجوم الخافت . تشجع بعد ذلك ودخل الثكنة لم ير شيئًا . فقد دمرت القنبلة معظمها ، والظلام والدخان يبعدانه بعد أن شعر بالغثيان . يده تمسك قطعة من القماش تدلت على بقايا الجدار .. كانت قطعة من علمهم ، تبين ذلك من خطين يحيطان بها لونهما أكثر عتمة من باقى القطع وكذلك بعض الخطوط بينهما . يشده ويلقيه فوق كتله يتصاعد منها دخان خفيف ...

تأكد أن لا أحد باق على قيد الحياة .. تسارعت خطواته إلى حد الركض حين تذكر أن قوات العدو قد تأتى مهرولة من الجوار ... أخذ طريقه إلى المكان الذى تواعد مع زميليه ليلتقى بهما ... على كتفه ماتبقى من الذخيرة وسلاح ذلك القتيل وفى يديه رشاشة جاهز لأى طارئ جديد ...

مضت ساعات قليلة حرجة ومقلقة وماتبقى إلا القليل .. يلوح بعدها ضوء الفجر ...

أبوسمير فى المكان المحدد . تحيط به أشجار التين الشوكى "والهيلانة" وبعض أشجار السنط ... يعود إليه الهدوء الحذر .. صوت أقدام تقترب يشعر بالارتياح لأن صاحبيه فى طريقهما إليه ..

يجلس رفيقه بجانبه بعد أن وضع رأسًا كبيرة كان يحملها . فقال له أبوسمير هامسًا :

- لِمَ فعلت ذلك ؟
- لقد أتعبنى وكاد أن يقتلنى .
- ألا يكفى أنك نجوت .؟
- لا يكفى ، لقد كان شرسًا قاومنى بعنف .
- سلاحه أفضل منه .
- لقد أخذته وأشار إلى قطعة ترقد بجانب الرأس ..

– هل ستأخذه معنا .؟

– ليكون .. شاهداً على كفاءتى ..

– وهل أنت بحاجة إلى ذلك ؟

– أولادى يحتاجون .

يسمعان حركة سيارات عديدة يصيخان السمع ، يزداد قلقهم على "أبى خليل" قائدهم وقد تأخر ... الليل يهزمه نور الصباح المبكر .. قال الرجل لأبى سمير :

– لن نستطيع التحرك .

– سنبحث عن كهف فى جنبات الوادى .

– وأبو خليل .

– لم يأت والنهار يهل .

– هل حصل له مكروه ؟

– العلم عند الله . لكنه يعرف كيف يتصرف .

– سننتظره .

– قد يأتى بعد أن يحل الليل .

– إن شاء الله ، وإذا تأخر ؟

– إذا لم يأت حتى منتصف الليل نعود إلى مركز قيادتنا .

– ونتركه ؟!

– نحن لانعرف ماذ حدث له .

– قد يكون ...

تحسس الرجل كيساً معلقًا بحزام سرواله . وأخرج منه بعض الخبز عرض على أبى سمير بعضه . لم يأخذ . واكتفى بشرب بعض الماء من "زمزميته" ...

كان الكهف صغيراً تستر مدخله شجرة لمياء كبيرة من "الأكاسيا"

أزهارها الصفراء برائحتها المميزة تعبر إليهما وتخفف من عطنة رطوبة جدران وأرضية المغارة ...

نام الرجل ... أما محمود عسقلانى ، رغم تثاقل جفونه فقد بقى يفكر فى الهجرة من المكان إلى الزمان والشمس تفضح المكان وتعبر الزمان والعنف والإرهاب يحيط بالوطن ويدخل فى أعماقه . تساءل :

هل العنف مفروض علينا ؟ هل قدرنا أن نعانى من أوهام الآخرين وهم يغزوننا ...؟

تفاجأ حين قال زميله وكأنه قد قرأ أفكاره : اختلاف المنطق بيننا وبينهم يعكس تبايناً فى المنطلقات والرؤى والتوجهات والمفاهيم .

التفت إليه . كلّمه . لم يرد . كان يغط فى نومه ويمضغ أحلامه .. تعجب من كلامه . كيف جاء رداً على بعض تساؤلاته . ظن أن المكان مسكون وأن الذى تفوه هو أحد الجان المتعاطفين معه .. بسمل وحوقل .. وتفحص جدران الكهف .. أسند رأسه على كتلة من الحجارة .. استسلم لسنة من النوم وإحدى عينيه مفتوحة كأنه ذئب يحرس القطيع وقد أعياه السهر فى انتظار جديد الصيد والطرائد .

تنقله أحلامه إلى عصور قديمة يرى فيها تحطم حصونهم على أيدى المسلمين فى خيبر . يسقط الناعم ثم القموص ويليهما الشق والنطاة والكثيبة والسُّلام ثم الوطيح ...

يطير بعيداً يحط فى جزيرة تحكمها النساء . لهن بأس شديد لا حكم للرجال عليهن ، يمتلكن الكثير من المماليك .. يختلف كل مملوك بالليل إلى سيدته ينام معها طوال الليل . يستحلب لفرط المداومة جميع ماعندها ... ثم يقوم بأعمال السحر ويخرج مستتراً عند انبلاج الفجر ... أخبره أحدهم أن سيدته إن وضعت ذكراً قتلته فى الحال وإن وضعت أنثى تركتها تعيش ... شاهدته امرأة ، أخذته ، ربطت يديه ورجليه ، شدته

بحبل ونادت على مماليكها ، أمرتهم أن يقودوه إلى البئر قرب بحر "مانيطس" الشهير ببحر الظلمات . . . . . هناك شاهد بعض الفتيات يفترعهن قسيس وهن سعيدات ببركاته وأزواجهن ينتظرون ويتأكدون أن الافتضاض قد حصل بفعل القس الذى كان يكسوه وبركوبر القرود . كبير العينين . مقرون الحاجبين ضيق الجبهة . . والملكة فى هودج قريب . عارية على كرسيها الوثير تتلذذ من بعيد . . .

يجلس مع الخليفة الكامل أمامه فردريك الثانى امبراطور ألمانيا . التاريخ واضح مكتوب ١٨ فبراير ١٢٢٩ م . كان الكامل فخر الدين بن شيخ الشيوخ يمهر المعاهدة التي نصت على بقاء بيت المقدس بيد الصليبيين بقيادة فردريك الثاني على أن يظل فى أيدى المسلمين - من بيت المقدس - منطقة المسجد الأقصى وقبة الصخرة مع ضمان حرية العبادة . . استعظم المسلمون . ومشى معهم يولول لضياع القدس كما يولولون . سمع أن الناصر داود قد أعلن الحداد فى دمشق لخيانة عمه الكامل الذى أفقر المسلمين إلى روح المهاجمة والجهاد . . . يقف أمامه فجأة اللنبى ونقش على جبهته ١٩١٧ . . يسأله لماذا أتيت ؟ يقول والفرحة فى كله : لأستعيد القدس وليقوم اليهود بإقامة مشروعهم ، وننتهى من شرورهم التى أقلقتنا . . لعلك لم تسمع ببنيامين دزرائيلى الذى أصبح رئيس وزراء بريطانيا ؟؟ سأخبرك لعلك لم تقرأ تاريخ إمبراطوريتنا . استمع جيداً لقد عاش هذا الدزرائيلى سنة ١٨٠٤ إلى سنة ١٨٨١ ، كان يهوديًا تحول إلى الدين المسيحى لكنه ظل طيلة حياته يشعر بأنه يهودى فى أعماقه . لقد دعا إلى انشاء وطن قومى لليهود . . . وهانحن نحقق لهم الحلم . . أظنك لاتعترض . لقد تعبنا منهم . والآن جاء دوركم . . .

شعر بألم فى رأسه رفعه . . نظر حوله . كان صديقه مازال نائماً والشمس تنحدر قليلاً إلى جهة الغرب . استعاذ بالله من كوابيسه . . كان

الكهف يمتلئ بأشعة الشمس المائلة التى عبرت من بين فراغات الأغصان للشجرة الكبيرة . .

شقشقة بعض الطيور وأصوات تغريدها الجميلة جعلته يشعر ببعض الألفة . أذهبت عنه وحشة المكان . لاحظ بعض عصافير الجنة ترقص رقصًا خارجًا عن مالوف العصافير الأخرى . . وهى تتمايل من جانب إلى آخر على غصن قريب تنحنى إلى الأمام ثم إلى الخلف . . يطير بعضها قريبًا ويقف منتصبًا . . وآخرون يجثمون على الغصن مقلوبين . . . . تبسم بمرارة وتعجب كيف لا تحزن تلك العصافير داخل الوطن المحتل . . .

تحرك بحذر وأطل من فتحة الكهف ، تنفس . . هواء الأرض يحمل معه طيب الزروع فى الحقول الحزينة . شعر أنها تناديه . . نظر إلى السماء شاهد طائر عقاب كبير يضرب بجناحيه بقوة فائقة صاعداً نحو السماء ، وعندما يبتعد يستلقى على ظهره فى الفضاء . . يأتى طائر آخر من نفس جنسه يحتضنه . . تأكد أن الطائر الأول أنثى . .عرف ذلك من مراقبة الطيور التى كانت ومازالت هوايته حين يخرج إلى الخلاء يتأمل طبيعة بلده قرب الحدود . . . تتشابك المخالب وتنطبق الأجنحة يتهاوى الزوجان رويداً رويداً . وقبل أن يصلا بطن الوادى يفترقان ويصعدان نحو السماء يكرران فعل الحب وهما يتناجيان ، شعر بالحنين إلى دليلة زوجته . باغته ذلك الإحساس رغم حالته بعيداً عنها فى مواجهة الخطر الماثل حوله وأمامه فى أى لحظة .

تأوه وجلس قرب جذع الشجرة متخفيًا بأغصانها . كانت الطيور كثيرة حوله ، تؤنسه ، توشوشه ، هكذا أحس وهى تقترب منه ، تنظر إليه رغم أنه ملتف حول نفسه متوجسًا من أبناء الشياطين الذين يبحثون عنه وعن الآخرين . . يسرح معهم وهو يتابعهم يتقافزون . يتداعبون . يقبلون بعضهم البعض بمناقيرهم بحنان يفوق ما عند البشر . استغرب أن يكون التقبيل لغير البشر . هاهو يراه عند الطيور وكان قد علم أن الحمام فقط

يشترك مع الإنسان فى هذه الصفة الجميلة .. لكنه يرى طيوراً تقوم بذلك وتشترك مع بنى آدم والحمام ....

على بعد خطوات قليلة كان طائر متوسط الحجم يلتقط حصاة ويتجه بها نحو طائر آخر ، يلقيها عند قدميه . يبدو أنها الأنثى .. ابتعدت أعرضت عن هديته وولته ظهرها .. يقترب منها تهجم عليه وتنقره . يستكين أمامها . ينظر إليها وكأنه يستدر عطفها. يشدو بصوت خفيض رقيق . يحرك رأسه قليلاً . تقترب منه وتلين تعانقه يعانقها . يمدان عنقيهما جنبًا إلى جنب ناحية السماء . كأنهما يشكران الله على لحظة الرضا ... يتأرجحان ويغردان أنشودة الحب الأكيد فى غمرة النشوة الحالمة..

اشتد شوقه إلى زوجته وهو يتابع الطبيعة فى جمالها المأسور والطيور تهجره مع بداية غبشة المساء . لتعود إلى وكناتها وأعشاشها تواصل الحياة. لايعرف إن كان بعضها يسكن المكان أو أنها فى طريق هجرتها الطويل فى مواسم الحياة كما تفعل طيور وعصافير الشمال القطبى وهى ترتحل مسافات طويلة قد تصل إلى ١٧ ألف كم إلى الجنوب بحثًا عن الدفء والأمان وتكرر ذلك على مدى العمر القصير ...

حمد الله أنه قريب من عشه القديم الذى احتلته كواسر الظلام وأبعدته إلى حين فى جزء آخر من الوطن الكبير ...

دخل المغارة وأيقظ صاحبه قبل أن يتكاشف الظلام .. انتظر بعد أن كسرا غصنين كبيرين من الشجرة ليستترا بهما ... رغم أن عهد زرقاء اليمامة قد ولى إلا أن هناك عيونًا تقويها مراصد حديثة قد تكون على حافة الوادى ترقبهما .. مشيًا متباعدين إلى نفس المكان الذى يعرفه "أبوخليل" لينتظراه . والريح تسترهم وقد بدأت تشتد قليلاً وهى تأتى من رحم الزمان عبر الوادى ، فأيقظت أحلامهما والمكان يفقد معالمه مع تعاظم الليل

البهيم . . . مازال الرجل يحمل الرأس ، لم يتركها وقد تغضنت قليلاً وذهب لونها . . كانت باردة كرأس ذلك الشاعر الجاهلي الشنفرى التي بقيت في العراء تنتظر القادم المجهول لتكتمل نبوءته قبل أن يقتل ويموت . . لكن شتان مابين الرأسين . ذلك شاعر صعلوك يبحث عن لقمة العيش في بيداء الصحراء ، وهذا رأس مغتصب دخيل يبحث عن ترحيل الآخرين . . لقد جعل رسمه في رمسه وأصبح داخل مصيره الأخير كومة من التراب والحصى تمامًا مثل الآخرين . . .

تلاقت عيونهما رغم الظلام . فهم كل واحد منهما ماسيفعله لو طالت غيبة "أبو خليل" . فلا فائدة من بقائهما في نفس المكان فالعدو يستخدم أحدث الأساليب والمعدات التي قد تُسارع في اكتشاف مكانهما لو أطالا البقاء .

ساد الصمت بينهما وصراصير الليل تحرس المكان بصوتها المعروف . . مع نعيق البوم وفحيح الأفاعي في الجوار . لم يخافا والقلق يتنامى في قلبيهما . تكورا على آلامهما وأحلامهما بعودة قائدهما . الليل يدنو من انتصافه . يعلو أنين بعض ضحايا الحيوانات ويختلط بصراخ الضواري . فالمنطقة يكثر فيها الضباع وبعض الذئاب شدًا على سلاحيهما . . . وهما يحملقان في وجه الليل . محمود العسقلاني مع أفكاره البعيدة داخل بيته وأفكاره القريبة في مكمنه والانتظار الرهيب واقتراب الوقت العصيب للقاء أو الافتراق . قال يحدث نفسه المترقبة : الدنيا سقوط وارتفاع ، لاتصفو على حال ، آمال وأحزان . . سعيد اليوم تعيس الغد . . والخائب منتصر والمتفائل حزين، وصاحب الحق مظلوم، والظالم مرهوب . هي الدنيا بحلوها ومرها ، تحتوينا تصفو ثم تغدر وتثور، تنضجنا أحزاننا قبل الأوان . . .

يسمعان دبيب أقدام . . يبتهلان . . ينتظران كلمة السر . يقترب الصوت ، يسمعانه ، يحمدان الله وهما يعانقان "أبا خليل" الذي كان

يلهث من الإعياء وذراعه ملفوفة بقطعة من القماش سألاه عما حدث همس لهما : سأخبركما عندما نصل بر الأمان . . . .

(٤)

جاءت فاطمة أبو شقرة إلى الصيدلية بحجة أن تشترى بعض الدواء . ولكن هدفها الخفى كان أن تتخطف بعض الوقت لتتحدث إلى سمير الذى أحبته وأخلصت له . وهو ، نتيجة لمرضه لم يستطع أن يقترن بها . بقيت هى تتعلق بالأمل المفقود واكتفت أن تراه . وهو يبادلها مشاعرها بسلبية دون تحقيق المراد . كان يحب أن تزوره ففى الصيدلية يجد الحرية معها رغم أنها جاءتهم كثيراً ، لكن ظروف البيت وعيون الآخرين لاتساعد على التحدث بما يريد . . .

قالت بعد أن استراحت قليلاً وهو يتمعنها كأنه يراها لأول مرة :

– أمازلت عند موقفك ؟

– أنت تعرفين حالتى . .

– لايهمنى سوى أن تكون بقربى . إلا إذا . . . توقفت

– كيف ؟ مازلت على حبى ، إننى مؤمن بحبنا وأعتقد أننا خلقنا لبعضنا .

– لكن تصرفاتك الأخيرة جعلتنى أقلق وأخجل من نفسى وأنا أزورك الآن .

– يبدو أنك على صواب ، من حقك أن "تعرفى" السبب . . كنت أود أن أخبرك ، لكننى جُبنت وتوقفت . . .

– هل هناك جديد ؟

– تعرفين بعضه ، وهذا جيد .

قالت وقد تصلبت بعض عضلات وجهها وارتعشت شفتاها ، وبدت الكلمات متباطئة قبل أن تخرج من فمها . . .

ـ تقصد ابنتى الصغيرة .

ـ ليس لها دخل فيما بيننا .

ـ إنها تحبك وتسأل عنك دائمًا .

ـ أعتبرها كابنتى بعد استشهاد والدها فى انتفاضة الأقصى فى سبتمبر ١٩٩٦ .

ـ أمازلت تذكر ذلك ؟

ـ وهل ينسى عاقل ؟ .... إنه جزء من تاريخنا .

ـ كنت أتمنى أن تكون أنت والدها .

ـ إنه أفضل منى ، اسمه شرفنا جميعًا واستشهاده وسام .

شعرت ببعض الخجل وعلت الدهشة وجهها المستدير وقالت : تشعرنى دائمًا بالذنب . لكننى لا أستطيع مقاومة تلك الرغبة الجامحة نحوك ... لقد جعلت مشاعرى تتلاطم داخل صدرى ، يكاد قلبى ينفطر .

ـ آسف على كل ماحصل . لم أقصد أن أسبب لك كل ذلك ..

ـ تجعلنى دومًا فى دوامة التسويف .

ـ أنت تعرفين شعورى نحوك . لكننى لاأستطيع أن أتمادى أكثر من ذلك .

ـ لن تخسر كثيرًا لو استحوذتنى بقربك . وأرجو أن تسمح لى بهذا التعبير ... لم أكن أرغب فى بادئ الأمر . قبل أن أتزوج أن أجعلك مشغولاً بى .. كانت نوازعى مشتتة .

ـ لكننى أحببتك وهمست لك بذلك عدة مرات .

ـ أتذكر . لم أنسَ لكننى أصبحت بعد أن تزوجت أكثر رغبة فيك . وجدت نفسى غارقة فى بحر من المشاعر أسبح فيه نحوك . كانت أحاسيسى هى مجاديفى تدفعنى إلى شاطئك الجميل . ومهما كنت خصب الخيال لا تستطيع تصور لحظة التنوير التى ينقلب فيها المحبوب إلى

مُحب . تدفعه إرادته الذاتية . تحركه قوة مجهولة محببة . قوتها هائلة لاتستطيع مقاومتها ... هل جربت ذلك ؟ حين تتغير المواقف وتختلف الأدوار ...

– مدهش ما سمعته ، لكن المفاهيم واحدة ..

– إن سروري يؤجج مشاعرى الآن وأنا أنظر إليك .

– كلام رومانسي جميل ، لكن الواقع لايسمح بأكثر من ذلك .

– أتشوق إلى ضمك بين ذراعي وبجنون إلى صدرى .

– أتفهم موقفك ، كل ما أشعر به الآن أننى أحبك .. رغم أننى لا أستطيع أن أواصل المشوار أبعد من ذلك . ؟

– تؤلمنى كثيراً وأنت تُلمح إلى تلك الرغبة الحسية .

– لا نستطيع إنكارها . إذا كنا صادقين مع أنفسنا .

– حبى لك يدفعنى إلى التسامى عن ذلك . يكفينى دفؤك .

– لا أضمن نفسى عند اللحظة الحرجة ... ولا أستطيع تجاهلها .. والرغبة تهمس لنا ...

– سأحافظ عليك ...

دخل رجل يرتدى ملابس مهرج وأخذ يتراقص ويأتى بحركات بهلوانية – تابعه سمير – أما فاطمة فقد أخرجت قطعة من النقود وأعطتها له فخرج بعد ذلك دون أن تأسف عليه لأنها تخاف على الوقت مع سمير ..

تابع سمير الحديث ونبرات صوته توحى بالصدق : أخاف أن أكون سبباً فى ضياع فرصة قادمة كى تتزوجين ..

– من غيرك !!! لن يحدث ، يكفى ماسبق – ثم لا تنسى أننى الآن مختلفة . هناك ابنتى ، لكنها ليست مانعاً إذا رغبت !!!

– قلت لك الزواج بالنسبة لى مغامرة غير مأمونة كما أخبرنى الطبيب بعد العملية .

ـ كلام مثالى لا يخلو من المبالغة .

ـ صحيح الأعمار بيد الله لكن لابد من الأخذ بالأسباب .

ـ علاقتى معك لم تكن فى يوم من الأيام مشكلة لى .. لكن موقفك الآن بداية مشكلة ..

ـ أرجوك لا تؤزمى الموقف .

ـ قلت لك أريدك ..

ـ وأنا لاأكتم عنك رغبتى . قَدِّرى حالتى .

ـ لن أتنازل عنك بسهولة .

دخلت امرأة عجزاء بشكل ملفت وقالت : أرجوك يا دكتور . انتبه إليها وقال :

ـ ماذا عندك أخبرينى ..

ـ ابنى يادكتور ..

ـ ما به .. اجلسى من فضلك وأخبرينى بهدوء .

ـ لقد عضنى وأسال دمى وأخذ يلعقه .. وكشفت عن ذراع ممتلئ سمين وآثار أسنان واضحة عليه وبعض الدماء حولها ..

ـ لماذا لم تذهبى إلى المستشفى ؟

ـ جئت أستشيرك أولاً فأنا أسكن قريبًا من صيدليتكم ..

ـ هل حدث منه ذلك من قبل ؟

ـ لم أنتبه . لقد كان إخوته يشتكون من كثرة عضه لهم .

ـ مالون أسنانه ؟

ـ داكنة بعض الشىء ، وشفتاه جافتان دائمًا ...

ـ هل يحب أن يبقى فى النور .

ـ دائمًا يطفئ الأنوار فى الليل ويضايقنا فى النهار بكسله وحبه البقاء فى الفراش .

- لا أستطيع أن أعطيك أى علاج سوى مايتعلق بجروحك ولاتهملى حالته لابد أن تأخذيه إلى طبيب مختص ...

شكرته بعد أن أخذت علاجها .. وخرجت مسرعة تكاد تتعثر .

سألته فاطمة بعد ذلك : حالة غريبة ، مصاص دماء جديد !

- بالضبط أستطيع أن أقول بعد تلك الأعراض أنه مصاب بمرض "بورفيرى"" .

- وما هو "بورفيرى" لأول مرة أسمع عنه ؟

- مرض أعراضه تتشابه مع أعراض مصاصى الدماء وهى الحساسية الشديدة للضوء ، والأسنان الغريبة الشكل الداكنة ، وبشرة جافة فى الشفاة واللثة ، والحاجة لشرب الدماء البشرية التى تمثل ذروة أعراضه .

- إذًا هذا خطير ..

- بالطبع . إذا لم يتم علاجه مبكرًا يؤدى إلى الجنون .

- يا لطيف يارب . ليتنى أعرف بيتها لأخبرها ...

- أنا غير متيقن .لكن مجرد تخمين قريب من الحقيقة .

- "اللى يعيش ياما يشوف" .

- يبدو أننا نقترب من نهاية الدنيا .

- ليس قبل أن تكون لى ..

احمرت عيناه تأثرًا وهى تحتفى به بكلامها وعيناها تضمه . وتصبب العرق غزيرًا من وجهه ، وقال :

- تضطرنا ظروف الحياة أن نتحمل رغماً عنا مالا طاقة لنا به فننجرف بردة فعلنا إلى الجهة المقابلة لما نريد .. وهذا ما يحدث الآن بيننا ..

- لا أنكر أن لكل منا خباياه الخاصة .

اتكأ على منكبيه وقال :

- لم أُخفِ عنكِ شيئًا .. فأنت أصلاً جارتى تعرفين كل نقاط ضعفى وقوتى .

زحفت قشعريرة من أسفل أقدامها إلى رأسها بعد أن سمعت كلامه وشعرت بأنها أضعف مما كانت عليه في بداية الحديث . .

لكن الأمل لم يفارقها . فهى تعتبر سمير النجم المضئ في سواد وحدتها الطويلة . . . أحست أن الأمر سيفلت من يدها وهى تكاد تضع قدمها على درب سراب جديد ، يحمل لها التمزق والضياع . .

قال وقد لاحظ شرودها:

– لم أكن أريد ولم أرغب أن أجعلك نهبًا للشك أو الخوف من مستقبل الأيام فأوضحتُ لكِ . .

شعرت أنه سحب من داخلها الهزيمة ، نظرت إليه بوجه متورد وقالت :

– لم تكن بالنسبة لي وهمًا . . لأننى أعرفك . ولم أعش خرافة صنعتها لأعيش فى الخيال . فأنت جزء من ماضٍ لا أندم عليه .

– حتى أنا لست نادمًا حين أحببتك فمازلت أحياه وأنت أمامى .

لم تجد ماتضيفه . شعرت أن زيادة الكلام فى الموضوع قد يسبب له الحرج أو الضيق ، شعرت بالارتياح . . بعدما سمعت منه ما أفاد أنه مازال يحبها ، قالت لتبعد شبح ذبول الحديث :

– بما أنك تهتم بالأدب – وقد تأثرت بكَ – لدى طلب عندك . شعر بالغبطة واهتم بماقالت فهو يحب أى شيء يتعلق بالأدب تاريخه أو إبداعه بكل أشكاله وقال مبتهجًا :

– أتمنى أن أُلبيه .

– أعرف أن عندك الكثير من الروايات فى مكتبتك التى شاهدتها عدة مرات أثناء زيارتى لكم ، لكننى لم أتجرأ على طلب شيء أمام أهلك حتى لا يزداد الكلام وأسبب لك أى ضيق . . أرجو أن تعيرنى رواية القفص الزجاجى .

– طبعًا المترجمة .

- هل تريدنى أن أقرأ "لكولن ويلسون" بالإنجليزية ياليتنى تابعت دراستى ، فاللغة الإنجليزية لم تعد معرفتها ترفًا أو مطلبًا لأرستقراطية فكرية . .

- أنت مثل النبات لايمتص من التربة إلا ما يلائمه . .

- لكننى لست أى نبات .

- أعرف . كنت تحبين أن يطلقوا عليك "وردة الحياة" .

- كان ذلك قبل أن أصبح أمًّا .

- لكنك مازلت تحملين شذاها .

(٥)

كانت الساعة تقترب من العاشرة ليلاً . القمر يزاحم أنوار شوارع خان يونس بعد أن أطل على استحياء فى سمائها . . أبو خليل مطأطئ الرأس يمشى متباطئًا صوب منزل صديقه العسقلانى كما كان يحب أن يسميه . . فبعد آخر عملية لم يقابله . شعر بحاجة إلى أن يتكلم مع أحد . . . كان تنفسه منتظمًا وهو ينقل خطواته برتابة كأنه يعدها . . رغم أن المسافة ليست بعيدة ، إلا أنها بدت أطول أو هكذا خيل له . . . وهو يفكر بكابوس ليلته الماضية ليقصه على صديقه الذى يقدر على تأويل مثل هذه الأحلام وقد اشتهر بذلك . . بعدما أصابت تفسيراته هوى فى نفوس معارفه وأصدقائه . يتسامرون ويتندرون بما يسمعون منه . . . ولا يملون صحبته . . .

كان قد حلم أنه فى وسط غابة كثيفة الأشجار . . فجأة سمع زئير أسد ، تلفت وجده واقفًا ينظر نحوه ، وقد فتح فمه المليء بالأنياب الحادة . . من الخوف يتحول أبوخليل إلى قزم قميء ، حاول أن يحتمى بجذع شجرة قريبة . لم يستطع فقد عاجله الأسد هجم عليه وأخذ ينهشه ، صرخ بعد أن سمع تكسر عظامه بين أسنان الأسد الهائج الذى ظهرت له قرون كرءوس

الشياطين فوق رأسه وقد سقطت لبدته بعد ذلك ، وبدا له أنه يضحك حين ابتعد قليلاً . وعاود هجمته وغرس أنيابه فى رقبته فلم يعد يستطيع الصراخ . . .

كانت العلاقة بين محمود عسقلانى وزملاء السلاح تقوم على الود والإخاء وكثيراً ما يجتمعون بعيداً عن فضول الآخرين يتحدثون عن مكنون أنفسهم وعن عملياتهم داخل الأرض المحتلة . وأحياناً يتطرقون إلى المشاكل الخاصة عن تلك الدوافع الغريزية التى تتملكهم أحياناً . لم تعد بينهم تلك الستائر السميكة من المجاملات فقد صهرتهم تجارب الهدف الواحد حتى أصبحت أسرارهم واحدة . بدأ أبوخليل بعد أن شرب القهوة يتحدث عن حلمه والجميع منصتون وبعد أن انتهى . علق سعيد النجار بصوته الخشن ، أن ماسمعه هو أضغاث أحلام .. ضحك الحداد وكان رفيق العسقلانى فى تلك الليلة داخل الوادى فى انتظار "أبوخليل" ، أما "أبوسمير" فقد اتخذ هيئة العالمين وقال : يبدو أنك ستتعرض لمحنة جديدة من عدو ظالم متسلط يسبب لك الهموم . أو أنك ستتعرض للمرض «لاسمح الله» رد أبوخليل قائلا :

– العدو موجود ، ونضالنا مستمر ، والخطر وارد مع كل عملية .

قال أبو سلمية فدائى شاب متحمس : خذ حذرك ياأبا خليل . . .

قال أبو خليل : لا يمنع الحذر من القدر .. لقد نجانى الله المرة السابقة .

تدخل أبوسمير وقال :

أخبرنا ماذا حصل لك ؟ لماذا تأخرت ؟

قال أبوخليل وهو يتحسس ذراعه المصابة :

إنها قصة لم تحدث لى من قبل .. يبدو أن أجلى يقترب . . .

ارتفع صوت الجميع وهم يقولون "فال الله ولا فالك" الله يعطيك طول العمر . الوطن يحتاجك يارجل .

علق سعيد النجار الفدائي المعروف : لاتقل ذلك لاتثبط عزمنا فإنك "الختيار بتاعنا" .

شكرهم أبوخليل متأثراً وقال :

بعد أن افترقنا .. تذكرُ ذلك يامحمود أنت والحداد ..

توكلت على الله واتجهت نحو الهدف .. خفق قلبي عندما شاهدت بصعوبة سيارتين قرب مدخل "الكيبوتس" كانت معلوماتي التي أخذتها من القيادة أن سيارة واحدة فقط تكون في الموقع .. صمت قليلاً بعدأن رشف بعض الماء .

فاستحثه أبوسمير قائلاً : "وبعدين" ...

طلب سعيد النجار من أبي خليل أن يتريث قليلاً ريثما يشعل سيجارة "بلمونت" – دخانه المفضل .

قال أبوخليل ومسحة ألم على وجهه : طبعًا تفاجات وبدأت أعيد حساباتي على ضوء ماستجد أمامي ... فإن أية غلطة قد تقلب الأوضاع ضدي أو ...

قال الحداد : لاتكمل .الله يعطيك العافية ..

تنحنح أبوخليل وواصل كلامه : ترددت قليلاً وفكرت أن أنسحب . لم تطاوعني نفسي ، في آناء الليل أحاطت بي وذكرتني بما فعله العدو في نهاية أكتوبر سنة ١٩٥٦ في كفر قاسم حيث استشهد ٣٧ من أبناء وطننا واستشهد حوالي ٢٧٥ في خان يونس عندما قتلوا الأهالي بدون تمييز تذكرت ذلك فار دمي في عروقي .. تخطفني اللحظة . اقتربت أكثر من "الكيبوتس" .. أصخت السمع ... كان كلٌّ شيء هادئًا ، جهزت رشاشي .. وضعته بجانبي . نزعت مسمار قنبلة قذفتها وتبعتها بثانية وثالثة إلى أن انتهى مامعي .. لم أشعر بشيء والانفجارات تتوالى .. تراجعت بعض أمتار ... ورشاشي في يدي .. خرج بعضهم . عاجلتهم

برصاصي الكثيف وبدأت انسحابي ... فجأة سمعت صوت محرك سيارة.. لم تكن إحدى السيارتين لأنني رأيتهما تحترقان لابد أنها أتت من مكان قريب داخل "الكيبوتس" بعد أن توالت الانفجارات أسرعت بكل ماعندي من طاقة .. كان نورها يتابعني كنت أعرف المنطقة جيداً فهي بلدنا . انعطفت ، سترتني بعض التلال المنخفضة والأشجار ، كان عقلي يعمل بسرعة أخبرني أن لافائدة من مواصلة الجري .. فكرت بسرعة واهتديت إلى مكان بئر قديم مهجور .. كانت السيارة مازالت على مسافة تسمح لي بالاختفاء .. نزلت البئر كانت فيه نتوءات صخرية .. لأنه قديم.. ولبدت فيه .. سمعت السيارة تبتعد وقد تخطت مكاني .. شعرت بالطمأنينة وبعد أن هدأت قليلاً شعرت بألم في ذراعي . والظلام داخل البئر لا تُجدي معه العيون تحسست يدي .. كانت لزوجة الدم الساخن تعلن عن إصابتي من صخور البئر صخور أرضنا وليس من العدو ، حمدت الله لأن ذلك يعني أن جرحي ليس خطيراً فأرضنا الرحيمة لاتجعلنا نعاني حتى لو جارت علينا قليلاً ..

قال سعيد النجار باهتمام : ماذا فعلت بعد ذلك وكلابهم المدربة تكشف كل شيء ؟

قال أبوخليل بعد أن غير جلسته وأخذ وضعًا أكثر راحة :

– انتظرت ذلك ودعوت الله أن يلطف بي ... لكن لم يكن أمامي غير النزول في البئر .. كان قريبًا من "بيارة برتقال" وبعض بيوتنا القروية المهجورة ...

المهم ، مضت ساعات رهيبة ، ولحسن حظي لم أسمع نباح أي كلب.. حمدت الله أن البئر كانت مقوضة في أسفلها بحيث أستطيع أن أختبئ في تجويفها دون أن يكتشفني أحد لو استخدام النور .. هذا ماحصل بالفعل... بعد حوالي ساعتين – أو هكذا ظننت لأن حاستي بالزمن كانت

مشوشة مهوشة ... اعذروني .

قال أبوسمير : أعانك الله . الحمدلله أنك بيننا .. أكمل .. أكمل لعنهم الله ... "يازلمة" .

قال بعد أن طلب كوبًا من الشاى : مر الوقت .. كنت أسمع صدى أصواتهم وصوت سياراتهم وحواماتهم .. إنهم لايوفرون وسيلة .. يستخدمون كل مايمتلكون ساعة الخطر .. كان النهار طويلاً .. سمعت أحدهم وهو يطل من فتحة البئر وخياله يتحرك أمامي دون أن يكشفنى لأن البئر كانت "ناضبة" يقول بالعبرية وأنتم تعرفون أننى أعرفها قال مامعناه يمكن "ابن العرض" يكون هنا ..

رد عليه آخر : لاأظن .. البئر قديمة تنهار عليه .. كانت حالتى لاتسرُّ . اضطربت واستعدت يداى للمواجهة لو تجرأ ونزل أحدهما ... لكنْ خيالهما انزاح فانقشعت غمة نفسى ..

ومع تخافت الضياء ، أرهفت السمع ... هدأ كل شئ .. كنت أعرف أن من عاداتهم عندما يحل الظلام لايتجولون على أقدامهم ولايكمنون فى مناطق الخطر ، بل يستخدمون الآليات والسيارات وهذا فضل من الله بالنسبة لنا – لأن هناك فرصة للنجاة بعون الله .. بدأت عملية الصعود الصعبة عندما حل الليل كانت ذراعى تؤلمنى لكنها لاتعيق حركتى كثيراً.... عندما وصلت إلى الفتحة توقفت لأستطلع الأمر بأذنى ... لم أستطيع أن أستكشف المكان والظلام يستر كل شيء ... لم أر أى نور أو أسمع أية حركة لأى شيء .. توكلت على الله . خرجت . انبطحت فوراً.. كانت "بيارة البرتقال" على بعد أمتار .. والأرض متضرسة قليلاً .. فجأة لمع نور كشاف .. التصقت بالأرض .. وكتمت أنفاسى وعندما ابتعد تحركت زاحفًا... ودعواتى لاتتوقف ... وصلت البيارة بصعوبة مع معاودة الكشاف لكن مكانى كان مستوراً ... بعدها أخذت طريقى بين الأشجار

بحذر شديد انحدرت بعد ذلك إلى مجرى سيل جاف ، لم يكن هناك أى منهم ... لكننى كنت خائفاً من الهليوكبتر أقصد المروحيات ... لكن الله ستر ، مشيت متثاقلاً بعد ذلك عندما هبطت إلى الوادى وقابلتكما هناك .
الكل بصوت واحد : الحمدلله على السلامة – والله لم نحب أن نزعجك ، ونزورك وفضلنا ننتظر مجيئك كما قلت لنا ...

قال وهو يهم بالمغادرة : هذه حياتنا نسأل الله السلامة ويبعد عنا شر تفسيرك الحلم "ياأبوسمير" .

نهض باقى الرجال ، استأذنوا محمود عسقلانى لينصرفوا ، وقبل أن يخرج أبوخليل همس أبوسمير فى أذنه وهو يقول : "يا شيخ سيبك من الأحلام ربك عالم بالحال" ...

(٦)

العالم يستعد لاستقبال عام جديد ، المسلمون يشاركون إخوانهم المسيحيين . عادة اكتسبوها من طول الجوار والمعيشة الدائمة . أشجار عيد الميلاد الصغيرة يحملها الأطفال والكبيرة يحتضنها الكبار تزينها ألوان المصابيح الصغيرة التى تعمل بالبطارية محمود عسقلانى يجلس مع ابنه الشاب الصغير "صادق" فى مقهى قرب محطة السكة الحديدية فى غزة بعد أن قاما بزيارة أحد أقاربهم لتهنئته بالمولود الجديد ..

مجموعة من الرجال كبار السن يتابعون الشاشة الصغيرة .. كان الوقت عصراً من يوم الثلاثين لشهر كانون أول ، ديسمبر سنة تسع وثمانين وتسعمائة وألف . حشد من المتظاهرين يعرضهم "التليفزيون" والمذيع يعلق ويقول : قام الجيش "الإسرائيلى" بمهاجمة مظاهرة للسلام فى القدس اشترك فيها ألف وخمسمائة من محبى السلام جاءوا من مختلف بلاد العالم للمشاركة وللتضامن مع الشعب الفلسطينى . عشرات الجرحى والقتلى

برصاص الإسرائيليين ، صورة مجسدة للعنف والإرهاب وقد تم اعتقال العديد من المشتركين فى المظاهرة السلمية . يلتفت أبوسمير إلى ابنه صادق ويقول:

– نحتاج فى هذه الفترة إلى التأييد .

صادق بحماس :

– ماذا يفيد ذلك ؟ الانتفاضة هى الحل ..

– نحن جزء من العالم ولابد أن يستمعوا إلينا .

– القوة فى الداخل ضرورية هى التى تجبرهم على الالتفات إلينا .

– لن يتركونا .

– من تقصد .

– إخواننا فى الخارج والعالم المهتم بقضيتنا .

– لا أظن أن يكون هناك فرق كبير .

– ستعرف عندما تنضج الطبخة .

يعلو صوت الرجال بعد أن يهل عليهم رجل يحمل على شفته العليا شاربًا ضخمًا يغطيها كلها وبعض جوانب فمه ولولا أن الشفة السفى ممتلئة لغطاها مع فمه ....

انتبه صادق وسأل والده : من هذا الرجل الضخم ؟

قال أبوسمير بعد أن دقق النظر : أظن أنه كان مختار "سكنة أبوكبير" فى يافا ... هذا ما يبدو لى. لقد كنت أشاهده أحيانًا لكنه كبر الآن . إلا أنه مازال يحتفظ بهيبته .

– هل يافا جميلة ؟

– سآخذك لتراها ، بعد أن يسمحوا لنا !!

– لن يسمحوا لنا إلا إذا توقفت الانتفاضة .

– إذن قد يطول الانتظار .

ـ أتمنى أن أشاهد مدينتنا . لكننى أتمنى أيضاً أن تبقى الانتفاضة .
ـ قد تجعلهم يعجلون بالانسحاب .
ـ هذه هى اللغة التى يفهمونها جيداً .
ـ تعالت أصواتهم بعد أن قلقوا وطرحوا الانسحاب من غزة .
ـ وبقية الوطن .
ـ إذا أحسوا بالوجع انسحبوا ..

ينظران إلى محطة السكة الحديد فى حالتها المهملة وقد تهدمت أجزاء منها . وتعطلت بعد اجتياح القطاع سنة ١٩٦٧ ونزع الكثير من القضبان. لم تعد السكة صالحة فى كثير من مناطق القطاع التى كانت تستخدم القطار عند السفر إلى مصر ..

قال صادق : هل سافرت به ؟

ـ كثيراً وبالذات بعد العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ وخصوصاً عندما كونوا جيشاً لنا من بقايا الفدائيين بعد استشهاد مصطفى حافظ بطرد بريدى ناسف أُرسل له فى مكتبه . كانت وسيلة جديدة للاغتيالات جربها "الموساد" ونجحت فى اغتيال عدد من القياديين ومنهم قائدنا الشهيد "حافظ" .

ـ هل كان فلسطينيًّا .

ـ لا فرق . لقد كان مصريًّا لكنه مؤمن بقضيتنا العادلة وكان فى ذلك فلسطينيًّا مخلصاً .

ـ أمن الممكن أن يعود عهد الفدائيين ؟

ـ لقد تغيرت الأساليب . أيامنا ، كان اليهود فى بداية عهدهم بالاحتلال لم يعرفوا الأرض وطبيعتها ، أما الآن فكل شىء أصبح مكشوفاً ، طائرات وأقمار صناعية .

ـ أصبح العمل الفدائى بالأحزمة الناسفة يحتاج إلى تخطيط طويل

ومهارة واستعداد للاستشهاد .

– كل شيء يهون فى سبيل رجوع الحق .

– الظروف الآن لا تخدمنا كثيراً ...

– لكن الاستمرار بالانتفاضة يعجل بانسحابهم .. على الأقل من مناطق ١٩٦٧ .

– نحتاج إلى مساندة الإخوة .

– لن يقصروا إذا سنحت الفرصة .

– العرب لو اتحدوا ياصادق من أعقل الأمم .. "التاريخ" يشهد لهم بالنجدة والقرى والوفاء والبلاء والجود ..

– لكنهم الآن مختلفون ، متفرقون ، ينظرون إلى أقدامهم .

– قلت لك الظروف لاتساعدهم الآن ، لاتظلمهم ..

تأتى سيارة أجرة . ينهض صادق ويسأل السائق إن كان سيتجه إلى خان يونس .. ؟؟

عند وادى غزة ، يتنهد أبوسمير ويقول لابنه : كان يوجد هنا مشروع كبير انظر لقد دُمر الجسر واحتلت الثكنات العسكرية الأراضى إنهم يتمتعون بأرضنا رغماً عنا ..

– أحمد الله يا أبى أنهم لم يتعرفوا عليك .

– البركة فيكم لقد أصبحتُ شيخًا الآن ثم إن القليل يعرف طبيعة عملى السابق لقد رحل الكثيرون من الذين يعرفون . حتى سجلاتنا حُرقت مع بداية الغزو الأخير ، لا تَخَفْ "عُمْرُ الشقى بقى" .

– مازلت خائفاً عليك يا والدى .

– لا تخف ، إن الله معنا ..

يتوقف السائق عند نقطة تفتيش دير البلح . أحد رجال شرطة العدو يدخل رأسه من باب السيارة يجول ببصره عدة مرات يتوقف قليلاً عند

محمود عسقلانى ثم يغلق الباب ويشير للسائق بالتحرك .

لم يقلق أبو سمير من ذلك ، لكن صادق ارتبك قليلاً . .

كانت أم سمير عندما وصل زوجها بصحبة ابنها صادق منتفخة العينين، واحمرار فى أعلى أنفها الدقيق سألها :

ماذا بك ؟

قالت : شعرت بدوخة قبل قليل . .

– هل آخذك إلى المستشفى ؟

– يكن أحسن .

شطف وجهه وتوجها إلى المستشفى بقى صادق ليستعد للذهاب إلى الصيدلية ليأخذ دوره فى العمل ويريح أخاه سمير .

كان المرضى ينتظرون عندما وصلا إلى هناك . أخذا مكانهما حسب الترتيب بعد الموجودين ، خُيل لمحمود عسقلانى أن المرضى أكثر عدداً من الأصحاء فى البلد . ففى كل مرة يأتى إلى المستشفى يجد أعداداً كبيرة تنتظر الكشف والعلاج . .

استلقت أم سمير على سرير الكشف وأخذ الطبيب "يفحصها" شعر أبوسمير ببعض الغيرة على زوجته و"الدكتور" يعريها أثناء الكشف همَّ أن يقول : لاداعى أن ترى مستور جسدها . توقف عندما تأوهت بعد أن ضغط الطبيب على صدرها . . شعر بالقلق على زوجته . . التى تمددت كشجرة جردها الخريف من بعض ورودها وأوراقها . مرت دقائق . . عاد الطبيب إلى مكانه ليكتب الوصفة وأوصى أن تعود له بعد أن ينتهى العلاج.

لم تكن دليلة عسقلانى تدرى أن بعض خلايا صدرها قد فقدت حيويتها وخصوصًا تلك الأنسجة الرخوة من ثدييها الكبيرين والآلام تشتد مع الوقت . . أهملت ذلك ، لم "تلحق" نفسها والمرض يحمل الدمار إلى

أجزاء أخرى مرتبطة بذلك الجزء من جسمها .

كان الطبيب يهمس لأبى سمير والدهشة تزداد على وجهه وهو يوضح له بصوت منخفض بأن ماعندها هو ما يطلق عليه "كارسيونا إن ساتيو" لم يفهم أبوسمير شيئًا من ذلك ولكن الطبيب قال له : إنه نوع من السرطان – ارتعد وامتعض وهو يستمع إليه – وإن حالتها تحتاج إلى عملية جراحية دقيقة ، نسبة نجاحها ضئيلة لأن المرض قد استشرى فى أجزاء أخرى من الجسد .. لكن كل شيء بإرادة الله وأوصاه أن لايخبرها وأن يأتى معها بعد أن تأخذ العلاج كله . تعجب محمود عسقلانى من مفارقات القدر كيف أن الموت يقترب من زوجته وهى بعيدة عن أخطار المعارك التى خاضها فى الوطن المحتل . وقدعاصرت الخروج الكبير سنة ١٩٤٨ وحروب ٥٦ – ١٩٦٧ م . استغفر الله بعد ذلك فالفناء والموت للبشر أمور مقبولة فى النهاية حتى لو بدا الأمر مكروهًا .. كان يعرف أن الموت حق وهو المرحلة النهائية للحياة تتوارى فيها الأجساد فى نومها الأخير فى رحم الأرض تلفها ظلمة الموت قد تتشابه مع الظلمة الأولى فى رحم الأم كلاهما يستدعى الصراخ على مسرح الحياة الكبير فى بدايتها ونهايتها قد تكون صورة الموت أرحم من صور كثيرة فى الحياة حين يسود الظلم فالمأساة ليست فى النهاية إنها فى الدرب الطويل من العمر ، الذى يبدأ مع لحظة الميلاد . البداية الفعلية للمسير نحو الموت الذى يذيب الحياة والأحياء ليعودوا كما كانوا قبل بدء الخليقة ترابًا يعشش فيه دود الأرض قبل التفسخ الأخير .

مرت الأيام والمرض ينهش نشاط أم سمير قطعة . قطعة . يأخذ الكثير من حيويتها وكانت تعزى نفسها بأن ما تشعر به هو نتيجة لجهودها داخل البيت ..

عادت إلى المستشفى قبل أن ينتهى العلاج يصحبها ابنها سمير هذه المرة ، بعد أن طلب منه والده ذلك لأنه أكثر مقدرة على فهم ماسيقوله الطبيب .

صدمته الحقيقة عندما علم أن والدته ستتعرض لعملية يعرف مدى خطورتها ولم يكن يخطر ببال والدته أنها ستنام فى المستشفى فى انتظار التخدير والمشارط والعلاج الرهيب بعد العملية . كبحت مشاعرها الأليمة والطبيب يخبرها بالحقيقة ولطبيعتها المسالمة استسلمت لقضاء الله وقدره بنفس راضية وهى تدعو الله أن يخفف عنها .

أما سمير فلم يتخيل أن تغيب والدته عنهم ، أخذ يستفسر من الطبيب عن طبيعة مرض والدته ونسبة نجاح العملية .. و .. و .. تلاشى كل شىء وهى ترقد فى غرفة صغيرة فى المستشفى تنتظر العملية الصعبة الخطيرة . كانت تشعر بدوار وخمول أفقدها طعم الحياة ، لم تعد تشعر بذلك الفرق بين حلاوتها ومرارتها . فقد ضاقت دائرة أحلامها وآمالها . تحاول أن تطرد أحزانها كلما نظرت إلى ابنها سمير وزوجها وأولادها والأهل والمعارف والجيران الذين تجمعوا حولها فى هذا المكان الضيق النظيف . كانت الوجوه حولها تشجعها على التمسك بالحياة والأمل . تعيش لحظات قصيرة تطرد منها أحزانها وتشاركهم النظرة الحانية وحين يعاودها الألم تنسى كل ما حولها .. خرج سمير وجلس على كرسى مقابل الغرفة هرباً من الزحام ... أحاطته وحدته رغم الحركة حوله وأمامه . لفته بستائرها القاتمة . استعرض معارك الحياة ، مرضه ومرض والدته ، خروج والده وهو صغير إلى المجهول داخل ليل الصيف والشتاء . يقتلهم القلق عليه فى كل مرة ، معارك ربحها ومعارك خسرها داخل دائرة الحياة ، تشتد الأحزان ويزداد القلق الموجع فوق رماد ساخن بعد انطفاء السعادة وبقاء جمرات لم تطفئها لحظة اكتشاف وهم الواقع الثقيل ، والقناع السميك يخفى مايحمله القدر وما سيكون بين البشر ... ذاب كل شىء الآن ، والدته طريحة المرض الخبيث بحقيقته المخيفة المرة ليزيد من شبق الموت داخل الحياة المكرورة يصفعه زمنه ، يتقوقع داخل نفسه - عالمه الصغير المحدود الذى يعيشه وحده ، يتعجب كيف

استطاع شمشون أن يحطم معبده ودليلة تنشد له أغنية الحياة والموت بصوتها العذب الجميل بعد أن جردته من مصدر قوته ... دارت به الدنيا شعر أن جدران المستشفى تتحرك نحوه لتزيد من سجنه . خال الأرضية تتجعد ثم تتسطح من جديد . اهتز فى مكانه لم يقو على النهوض .. ارتعدت فرائصه شعر أنه يتهاوى ، يقع ، ارتجفت أطرافه ، سقط ، ارتطم بأرضية الممر الناعم الأملس النظيف ، حينها سمع نباح كلاب الشارع فأضافت نغماً جديداً فى سيمفونيته النشاز .. وقائد أوركسترا حياته المجنون يتمايل ويغنى فيزداد الضجيج ، وهو المستمع الوحيد . تستمر الأصوات ، تظهر صورة أمه وقد لفها البياض وبقعة صغيرة حمراء فوق صدرها . أقزام كثيرة تظهر وتنضم إلى الجموع المحتشدة أمامه يظهر الطبيب وقد فقد رأسه وفى يده منشار طويل يقطر دماً .. بنفس لون البقعة الحمراء فوق صدر والدته .. يبتعد عن الجميع تقترب منه فاطمة ، تتغير ملامحها فجأة ، يصرخ : أنت ! لماذا جئت ؟ أعرفك أيتها العجوز . جاء صوتها كأشواك الطريق : عرفتنى الآن ! نعم إننى "إليزابيث باتورى" .. لقد زرتك كثيراً فى أحلامك بعد أن قرأت عنى الكثير ... ابتعدى أيتها المجنونة .. لن تستطيع أن تتجاهل وجودى – لقد جاء دورى الآن لأنتقم .. عليك أن تنام .. تنام .. تنااام . كان الصوت يبتعد وجسده مُسجى على أرضية الممر ..

عاوده الأمل فى البقاء ... عندما رأى الطبيب وقد التصقت رأسه بين أكتافه من جديد . لكن المنشار كان فى يده وقد جفت عليه الدماء .. انتشعت عنه أفكاره السوداء بعد أن أبعد هواجسه وأوهامه .. أخذ يتمتم دون أن يلتفت إلى أولئك الذين تجمعوا حوله حين سقط عن الكرسى وقال كأنه فى حلم : حياتى مغامرة تتدفق كنهر يجرف كل ما يعترضه ليصب كل شيء فيه داخل بحيرة حياتى رغماً عنى ، أترك نفسى تسير مع تموجات

النهر بتياره العنيف علّها تتخلص من توترها الطارئ المقيت فى صخب الحياة بلامبالاة .. قد تأتى ريح الخريف تجردنى من أوراقى وفى مواجهة الضياع أتعرف على ذاتى فلم أعد أخاف الحياة – والسعيد من عاش متخفيًا بين الأحضان والقبلات ، وإن جاء الندم ستبخره الشمس ، والريح تقصف بالبخار ، يأتى الليل يضخم الآثام فتهرب الروح ويهجع الجسد ، تكتنفه لذة من يموت فوق الثلوج وكأنه فى سبات عميق ...

(٧)

مريم مشغولة بتمريض والدتها .. ذهنها لايعمل بوتيرة منتظمة .. وهى ترى والدتها بعد العملية الصعبة التى فقدت فيها أجزاء من صدرها وكل رحمها .. وما فعل بها العلاج الكيميائى الرهيب الذى غير شكلها بعد تساقط كل شعر رأسها وحاجبيها ورموشها . بدت كأنها هيكل عظمى يتنفس.. وهى تقترب من مرحلة من العمر مليئة بالصعاب والآلام بعد أن ارتحل الصخب وقلت ساعات السعادة ... وجاء وقت تمنت فيه الموت..حتى لايزيد عذابها وعذاب الآخرين حولها وبالذات ابنتيها مريم ومروة ... كان يتملكها شعور من الخوف الغامض عليها ، تصاحبه مشاعر من الضجر والنفور من حالتها التى تزيد سوءاً يوماً بعد يوم ...

مرت الأيام بطيئة متثاقلة ومع التعب والسهر شعرت مريم أن حيويتها قد ذبلت والكآبة تسيطر على جو البيت فاضطرد خوفها على المستقبل . ولولا ثقتها بنفسها لأنهارت تلك المُثل التى وضعتها لحياتها ، بعيداً عن الرجال . كبحت الكثير من مشاعرها وهى تستشعر آلام والدتها فيكتنفها الإحباط من جديد الفواجع . فقبل والدتها ، كان سمير وعملية القلب التى جعلته يزهد فى أحاسيسه الجسدية خوفًا من أن تسوء حالته وقلبه الضعيف يخفق خائفًا متوجسًا ... مآسٍ ترفُّ فى قشيب الأوجاع . لاتنهار

ولاتتلاشى - كان فى داخلها خوف من الحياة خوف من الموت المفاجئ. فلم تسمح لعاطفتها أن تسبح فى خيال الحب والمغامرة حتى داخل أحلامها التى كانت كثيراً ماتعتبرها غلطات لايجب أن تتكرر داخل ليلها . كانت تحب السهد والسهر تطّلع على جديد المعرفة فى الحياة - تستقى ذلك من جديد المجلات والقصص لكتاب فلسطينيين وعرب وأحياناً لبعض الكتاب الأجانب الذين تترجم أعمالهم إلى اللغة العربية وإن كان من وجهة نظرها أن بعض المضمون لايعجبها .

تتمسك ببعض التحفظات ، بسبب توجهها المتزمت الذى يجعلها فى قلق دائم لأن ماتقرأه لا يتمشى فى كثير منه مع ما ارتأته من أخلاق وآداب الحديث ...

هكذا برمجت حياتها ورأتها بين سطور الكتب التى تقرأها وتستمتع بها : تشعر أنها أضافت إلى حياتها الكثير من حيوات الآخرين . كانت تشعر أن العقاد قد عبر عما تشعر به وهى تقرأ له : إن حياة واحدة لاتكفى لمعرفة الحياة ومافيها فإن القراءة للآخرين تضيف أعماراً أخرى لها ورغم قناعتها بأن موقفها من الزواج هو نوع من العزوف عن خوض ماكانت تعتبره تجربة مُرة قد لاتستطيع أن تتجرعها وتعيش معها بسبب مثاليات تمسكت بها . رغم معارضة والديها .. لكنها بعد أن تعبا من مراجعتها تركاها تخوض حياتها ، وهمايراقبانها من بعيد بشىء من العتب والإشفاق .

كانت كثيراً ماتشعر ببعض الضيق والمعاناة وهى ترى نظرات الآخرين تخترقها وتسحب بعضاً من هدوئها . لكن هذا لم يمنعها أحياناً من الوقوف أمام المرآة تحدث نفسها بعيداً عن ذلك القيد الكبير الذى ألزمت نفسها به أمام الأهل والمعارف وهى ترتدى "فستاناً" جديداً : ماقيمة كل مايستر جسدى النابض بالحياة ، الجميل ، المتناسق ، ووجهى بحلو لفتاته وأنا أداريه . أحافظ عليه . أمنع نفسى من أنوثتها وأُبعد الرجال عنى

أخاف أن يمسسني أحدهم فيفجر طاقاتي وتثور منابعي لم أجعل أحداً يلمس هذا الشعر المنسدل على كتفي وأعلى نهدى النافر المدلل الوضيء .. أتحسس جسدى وقدى الممشوق يغريني .. يدغدغني أن أجرب النوم مع جسد خشن كثيف الشعر ، مفتول العضلات ، قبل أن يحل الخدر الكبير عيناى المكحلتان ، رموشهما ... فمى المنفرج عن ابتسامة شوق ، كل هؤلاء مملكتي .. جنتي لن يدنسها أحد بشهواته بعد أن روضت مالدىْ بطول عناء بعيداً عن فضول الآخرين الذين يجاهدون لخنق وإجهاض إبداعى الخفى خُلجاني وأكمائي - أحبذ النفور في مشاعرى وخلجاتي الوجدانية أسير على هدى إيماني ، وحُسادى يتخافتون .. أشفق على أخي سمير في كده نحو الرواء . يجمع شتات نفسه عندما تأتي فاطمة .. كنت أعرف خبيئة أمرهما ولولا صدقهما مع نفسيهما لاختل عقلهما ورَدِنَتْ عاطفتهما .. كثيرة تلك الأوقات التي جمعتهما بعيداً عن فضول الآخرين في الصيدلية وأماكن أخرى محدودة بعيداً عن البيت يتحدثان عن مكنون نفسيهما يتناجيان يفضفضان عن ضيقهما ، يحاولان حل مشاكلهما الخاصة .. وحتى عن تلك الدوافع الغريزية التي تربط المحبين ... لم يتركا شريحة من نفسيهما إلا تفحصاها بالصراحة والتفاهم بلامجاملات والأسرار مفتوحة بينهما .. قليلاً ماتباينت وجهة نظرهما فيما يتعلق بالواقع .. وإن كانت فاطمة أبوشقرة أكثر متابعة له ... عيناها تفضح ماتشعر به نحوه ، ومفاتن جسدها تتعطش للحظة اللقاء العزيزة .. والزمان يَغلُّ يده ويبخل..

رأتهما ذات مرة حين ذهبت لتأخذ الدواء لأُمها ... يده فوق يدها . لم يرها أخوها .. كان مشغولاً وهي تطل من باب الصيدلية . تراجعت بسرعة وقشعريرة باردة تكتسح أطرافها ، تمنت لو أن سعادتها تكتمل ، وصدرها مثقل بالهموم .. يدها على صدرها بعد أن اهتز قلبها فأيقنت أن شفافية حسها الجسدى باقية لم تهجرها ، والقشعريرة تسرى في كل بدنها . وهي

على أعتاب الثامنة والعشرين . . .

يدلف الليل كضيف حبيب طال انتظاره .. مريم على سريرها ، أمامها بعض الكتب المفتوحة . تحاول أن تستخرج منها ما يفيدها من تجارب الآخرين ، لتسحبه على حاضرها بعد أن تهضم مامروا به ، تقارنه مع ظروفها الطارئة داخل البيت ووالدتها فى شبه احتضار يومى . . . والعمر يمضى بها تحبه أحياناً وتبغضه أحايين أخرى ، تهرب منه إلى طفولتها وذكراياتها الجميلة .. والحاضر يضغط عليها بما يحمله من مرارة بين طياته والمستقبل فى رحمه يلفه الضباب .. كهارب من اتهام باطل .. تلاحقه شرطة الأسياد . .

يدق جرس الهاتف . تندفع بطريقة توحى بالشوق للتخلص من الوحدة الممزوجة بالصمت الناطق على صفحات كتاب فى حوار كالح تنقله العيون فى لحظة مفعمة بالذبول والمراوغة .. ترفع السماعة – تستمع – يندفع الدم إلى وجهها – تخرج من بين شفتيها عبارة : "النمرة غلط" ..

تضع السماعة وتغمغم : "ناس فاضيين" – يلقون بكلمات الحب والغرام على قارعة الآذان . لاصبر ولاتأكد من أن ماينشدونه هو المطلوب . . .

شعرت أن نفسها تراودها وتمنت لو أن الكلام الذى سمعته كان لها . . .

(٨)

يتسلل شعاع الشمس عبر النافذة . التى تطل على الحراج الطبيعية التى تغطى مساحة التلال الرملية الممتدة مابين المنطقة السكنية والبحر .. نسمات الصباح المنعشة .. ببرودتها المحببة فى أيام الصيف . . .

مريم وأختها التى تصغرها تعيدان ترتيب بعض الأشياء التى يكثر استعمالها أكثر من غيرها بعد رقدة أمهما من مرضها الخبيث . . .

فاليوم الجمعة بداية الإجازة السنوية التى طالما انتظرتها مروة لتأخذ بعض الراحة من عملها كممرضة فى العيادة التابعة "للأنروا" "وكالة غوث اللاجئين" . رغم معارضة الأهل على عملها هذا بسبب كثرة الشائعات عن الممرضات وما يغلفهن من غموض العلاقات مع العاملين فى العيادات أو المستشفيات من ممرضين ذكور وأطباء وبالذات فى نوبات السهر الدورية ، التى لابد أن تقوم بها الممرضات ... فالتصقت بهن بعض شوائب الأخلاق التى تصل عند البعض إلى حد الاتهامات المؤكدة لدى البعض الآخر كنوع من القذف الذى لايليق فى عصر الفضاء والتقدم العلمى الهائل من إنترنيت وحاسوب وخلافه . استطاعت أن تقنع والدها العجوز المجرب الذى طحنته معارك الحياة . فجعلته أكثر تفتحًا من غيره ممن هم فى سنه .. وكان محبًّا لها فوافق رغم معارضة باقى العائلة .

وجاء دورها فى تمريض والدتها بعد أن تنهى عملها اليومى فى النهار ، أما إذا كان فى الليل فكانت تعود مرهقة ومتشوقة إلى النوم .. ويكون العبء كله على مريم التى لاتتبرم من أعمالها فى البيت ..

نظرت مروة إلى البيت نظرة كلها استغراب ، فإن مارأته اختلف كثيرًا عما كان عليه أيام العمل .. ففى أيام العطلات يستطيع المرء أن يرى بصورة أكثر وضوحًا ودقة ، فتبدو له تفصيلات لم تكن تسترعى انتباهه وهو مشغول بالعمل لايستطيع أن يميز الكثير مما يشاهده بحكم العادة داخل المنزل لأن كل شيء يرقد فى مكانه لايثير الانتباه لسكونه وعدم الاقتراب منه كثيرًا لقلة الاحتياج الدائم له .

كانت ترغب لو استمرت قليلاً فى الفراش .. إلا أن مريم أيقظتها لكى تنهيان الترتيب والنظافة قبل أن يأتى الطبيب لمعاودة أمهم والاطمئنان عليها ..

بدأت مريم بتنظيم وترتيب غرفة والدتها . أما مروة فبدأت بغرفتها التى

تشاركها فيها أختها .

كان هناك تباين بين الأختين ، مريم فضلت أن تجلس فى البيت وقطعت دراستها فى جامعة النجاح بنابلس ، والتزمت بأفكارها الخاصة عن المرأة وطبيعتها – بعد أن تأثرت بأحد أساتذتها الذى اعتبر جوهر رسالة المرأة لايكون إلا فى بيتها بين أهلها داخل الأسرة وأن هدفها لايكون إلا بالإنجاب وزيادة أفراد الأمة وتربية أبنائها – لكنها لم تكتف بذلك رغم عدم ارتياح أسرتها لهذا التصرف . لكنهم ارتضوا بعد ذلك بما أقدمت عليه بسبب طبيعتها الهادئة الوديعة .

أما مروة فقد كانت على النقيض ؛ فهى تحبذ عمل المرأة وتدعو إلى مزيد من التفتح الذى لايؤثر سلبًا على حياتها الأسرية وعلى أخلاقها وسمعتها فإن ذلك لايتعارض مع وظيفتها الأولى كزوجة وأم ، لكن التقوقع داخل شرنقة من الأفكار والانتماء إلى مذاهب من التزهد بمتع الحياة والارتماء فى أحضان أشواك الحرمان بما منحنا الله فى طبيعتنا كبشر – كانت تعتبر كل ذلك نوعًا من الهوس بالضبط مثل ذلك الانتماء السياسى أو الحزبى الذى يفقد فيه المنتمى ذاته ويضحى بها من أجل مبادئ تقعده عن التمييز بين ماهو كائن وما يجب أن يكون بحرية الرؤية الحقة التى تمنحه مساحة أوسع للمناورة داخل الحياة ، دون ذلك القيد من التعهدات والالتزامات التى تجعله يفقد السيطرة أحيانًا على نفسه فيهتف بحماس أثناء مظاهرات التأييد لفصله أوجماعته يردد هتافات وضعها الغير له فحفظها دون أن تكون له اليد الطولى فى مناقشة شرعية ذلك حسب الأصول المرعية الحيادية فى واقع حياة مجتمعه الذى ينتمى إليه .... فلايجنى بعد ذلك حين تنحسر الموجة إلا العنب المر ، وقد يعيش بعد ذلك مغموراً مطموسًا هذا إذا سَلِمَ من غضبة الطرف الآخر الذى غدت له الهيمنة مع تغير الظروف والمواقف ..

فتحت النافذة ونظرت إلى الأماكن البعيدة التى تتحد بالأفق . فعبثت النسمات بشعرها الناعم الكستنائى وزادت من تبعثره حول وجهها البيضاوى بوجنتيه البارزتين ، ومن عينيها يشع بريق الذكاء ، تحيط بهما رموش تلونت بسواد الكحل الذى تحب أن تضعه ليزيد من سحر عينيها العميقتين . إن أطلت النظر إليها تشعر أنهما يضمان أسرار الكون كله دون أن تستطيع أن تعرف أى منها لأن الغموض سيلفك وأنت مسحور بلغتها الجميلة التى تجبرك على معاودة النظر إليهما حبًا بأسرهما ، ليس رغبة فى كشف مكنون غموضهما وأنت سابح فيهما لاتود الخروج والزمان يبعدك عنهما حين يشعر بالغيرة منك .. فيجعلك تتساءل لماذا لاتكون لى ؟

لن تجد إجابة تشفيك من حيرة موقفك . وكأنك أمام طلاسم أبى الهول الأبدية .. تحكى قصة الحياة بلغة ترميزية لايفهمها الكثيرون فيخطئون تفسيرها وينكفتون على أنفسهم يجترون أفكارهم فى انتظار نهاية أحلامهم . رنين مفاجئ يجعلها تلتفت إلى جهاز الهاتف بوجل ... تتوارد عليها الظنون تقف عند أحدها تهمس : إنه "الدكتورسالم" .. لم يقدر على تحمل غيابى .. لارغبة لى بالتحدث معه فى هذه الساعة المبكرة . لقد سرق منى لحظات التأمل ، والطبيعة تتنفس هواء نهار جميل وتعيد خلق أحلامى ..

يدفعها استمرار الرنين إلى رفع السماعة بارتباك . لاتحب أن تكون موضع شك فى منزلها .. تكره العواطف المكشوفة إذا اجترحتها آذان الآخرين .. وبالذات أختها مريم العازفة عن بحور العواطف العميقة وإن لاحظت عليها بعض التغير باهتمامها بمظهرها الذى يوحى بصحوة الأحاسيس الخدرة المسترخية .

يأتيها صوته كما توقعت .

– صباح الخير .

– صباح الخير .. أظن أن الوقت مبكر ..

– أوحشنى صوتك وصورتك . متى أراك ..؟؟

– تعرف أننى فى بداية الإجازة ، ولارغبة لى بالخروج .

– هل ترغبين أن أقابل والدك ؟

– من الممكن ولكن ليس اليوم ..

تزيد من عبارات الاعتذار وتستعجل نهاية المكالمة المباغتة .. بأسلوب لايوحى بالتبرم أو النفور ، كلماتها لم تخرج عن دائرة اللياقة ... تضع السماعة ، وعليها سمات التفكير .. ذهنها يعمل بنشاط وهدوء ... سيأتى اليوم ، كنت أود أن يؤجل ذلك – رجوته . لكنه أصر ، هذه عادته ليثبت أنه الرجل وكلمته تسرى حسب مفاهيم أسرته التى حدثنى عنها كثيراً ، لم أحبذها . كنت أعارضه بشىء من التحفظ الودود .. ليأت فقد لّمحت له بأن هناك جديداً قد طرأ على تلك المشاعر الراكدة فى داخلى ، موقفى مُحرج صعب . حيرتى تكاد تخنقنى والحرائق فى دمى ، وجيب قلبى مضطرب . من الصعب أن أغير موقفى بلا تبرير مقنع ، ومن الصعب أيضًا أن تحاول إقناع من لايرغب أن يقتنع .. تباين المواقف وتغير الأدوار فى لعبة الحياة أمر لايقدر عليه إلا القليلون . وهو ليس منهم .. لن يتشبه بالمسيح عليه السلام ويحمل صليبه ، يسير فى درب الآلام حين تنعدم الخيارات ، فيسير دامى القدمين نازف الدم يعتصر قلبه ألم يكفى البشرية فى زمانه وزماننا .. لن يستطيع أن يتحمل قدره المؤلم سيراً فى نهاية المطاف ... بداية جعلت النهاية مبهمة والحياة لاتتوقف لإعادة التفكير . تسارعت تُولد المواقف وتقلب الأدوار فى أصقاع العمر على امتداده .. لا نقدر إلا أن نسير دون أن نعرف طبيعة الفاجعة أمامنا . كل شىء يومض وينطفئ وفى داخلنا صمت يكاد يُميت بعض مشاعرنا بين جدران الأمل داخل أسوارنا .

تترك مافى يدها حين تسمع أمها تتوجع بصوت مسموع .. تجد مريم بجانبها تعطيها الدواء . . .

(٩)

فى أواخر ١٩٥٦ . أصدر الحاكم العسكرى الإسرائيلى لقطاع غزة "سوغان ألوف حاييم غاءون" أمراً بسد الطرق الرئيسية فى غزة وخان يونس.. وتحويل العبور إلى طرق أخرى فرعية وذلك لكى يعطى حرية أكبر لتحرك قواته المحتلة فى عبورها إلى سيناء .. سمير مع والدته يسيران فى الطريق الرملى داخل حِراج الشجر ، صعوداً وهبوطاً فوق التلال الموجودة... كان الجو بارداً ، الرياح تكاد تخلع الحجاب الذى تتلفع به أمه .. أقدامها تغوص فى الرمال الناعمة كغيرها من العابرين إلى منازلهم بعد أن أخذوا مستحقاتهم من التموين الذى لم تتوقف "وكالة الغوث" عن صرفه رغم الاحتلال ..

كان والده قد عبر إلى مصر مع رفاق الكفاح ، حسب ماصدرت إليهم الأوامر فتحملت أمه المسئولية الصعبة والموارد قليلة ، لكنها بحسن تدبيرها وبمساعدة والدتها التى كانت تعطيها من حين لآخر بعض "الجنيهات المصرية" العملة المتداولة فى القطاع – لأنه كان تابعاً إلى الإدارة المصرية – لتعينها على تربية أولادها الذين كانت تحبهم كثيراً وخصوصاً سمير ....

لاحظ أن والدته أبطأت الخطى . سألها إن كان بالإمكان أن يرتاحا قليلاً. قالت وهى تخطف أنفاسها :

– لابد أن نصل قبل أن يحل موعد منع التجول .

سألها بعفوية طفل لم يبلغ الحلم بعد : لماذا منع التجول؟

– يخافون من بقايا الفدائيين .

– مثل أبى .

ارتجفت وقالت : لاتذكر ذلك إنهم لايعرفون .

- لكنهم بعيدون !!!

- آذانهم تسمع كل شيء . شياطين من الجن .

- لماذا قتلوا ابن الشقرة وأولاد "أبومسلم" .

- هذا طبعهم يحبون الدماء .

- مثل "دراكولا" الذى قرأت عنه فى إحدى المجلات .

- ألعن منه ، لأنهم يقتلون ويحتلون . .

- متى سيرجع أبى ؟

- لا أعرف . . قد يأتى فجأة .

- أخاف عليه . !!

- الله موجود . سيأتى بعد أن يرحلوا .

- لو كان هنا لقتلهم . قال ذلك عندما رأى بعض جنود العدو فى إحدى المصفحات أمامهما .

لم ترد . اكتفت بإشارة من أصبعها بأن يصمت . . وقالت بعد أن تخطت حاجز الجنود :

مارأيك لونسكن عند جدك . أبى . ؟

- لماذا ؟

- أكثر اطمئنانًا وأمانًا فى غياب والدك

- لا أحب أن أترك بيتنا .

- يمكننا أن نبقى فى النهار وعند بداية الليل نذهب إلى هناك .

- شيء متعب كل يوم . يمكننا أن نزورهم ، لكن لانبقى عندهم طويلاً. هل أنت قلقة ؟

- عليكم . "أولاد الحرام كثير"

- مسدس أبى موجود .

- قلت لك لاتذكر ذلك أمام أحد .

- إننى أكلمك أنت . وأنت تعرفين كل شىء !!

ربتت على رأسه .. واصلا المسير وموعد منع التجول يقترب .

كانت دليلة .. امرأة جميلة .. فيها الطمع وهى وحدها مع أطفالها .. وكان هذا كافيًا لأن تفكر بالمبيت عند أهلها بين إخوانها ووالديها .. لكنها فضلت أن لا تقلل من تعلق سمير ببيته رمز الوطن الكبير ... وربطت بين بقائه ورحيلهم فى سنة ١٩٤٨ من مسقط رأسها الذى تحن إليه كثيراً ..

لكن خوفها من الليل له أسبابه ؛جمالها وماسمعت من قصص الاغتصاب التى يقوم بها جنود اليهود بأسلوب لاترضاه البهيمة ولاتطاوعه الوحوش .. ثم نظرات جارها "أبوهارون" عندما تقابله مصادفة عند خروجها من البيت لشراء ماتحتاجه أو لزيارة الأهل ، ونظرات الأصدقاء المقربين لزوجها .. فيها الكثير من الريبة والرغبة ..

وسبب آخر يؤرقها كثيراً . عندما يعود إليها الحنين والشوق إلى الوصال... فتتقلب على جمر فراشها والشهوة تشتعل ولا سبيل إلى إطفاء وهجها ، وبعاده قد طال ، وهى أكثر تهيجًا فى وحدتها الطويلة ، والحب طريق البائسين .

كبتت كل ذلك وهى تنظر إلى أطفالها النائمين بقربها .. قنعت بالقليل ورضيت العيش بعيداً عن فضول الأحاسيس ، فابتعدت عن قبيح العادات التى سمعت عنها ، والغرباء يعيشون فساداً يبيحون الحرام ويجحدون الحق. يدلون بذلك على مهانتهم وقصورهم عن أسوياء البشر .

كانت تتمنى لو أن الموت اجتاح جارتها "نعيمة القصاص" - الأرملة الطروب - التى كانت تسعى حسب ماسمعته عنها إلى الحرام بإرادتها وهى الأرملة الكبيرة التى تخطت الأربعين ، لكن سنها لم يشفع لها بالابتعاد عن علاقات مشبوهة مع بعض الرجال الذين يتعشقون الحب أيام الحروب وكأنها

تشعل فى داخلهم الشهوة ، ينساقون وراءها ويتلذذون بالحرام . على الرغم من أن معظمهم متزوجون ...

كانت تنفر منها عندما تقابلها فى كامل زينتها والحزن مازال يجرى فى طرقات المشاعر بين الجوانح وعلى أعتاب البيوت . كان الشبق عندها أحلى ما في الحياة . تجاهر بأن ليس للمرأة إلا شرفها . والأخريات يتغامزن ، يمطعن شفاههن ، يجعلنها تتكلم وكأنها لوحدها رغم أنها بينهم . كانت مشهورة بالغريزة لكنها تحاول أن تغطى على ذلك بالتشدق بالفضيلة وبكمال الأخلاق فى النهار ، وفى الليل تبيع كل شىء من أجل لحظة ارتواء للذتها الحسية العطاش ويقال أنها كانت تشترى متعتها وهى تدفع لبعض الشباب الذين تطغى عليهم غلمتهم فيثرونها ويطلقون عنان تهيجها فتزيد العطاء حبًّا في البغاء .. حتى قيل عنها أنها تسير تحت جنح الظلام إلى الثكنة التى تقع عند مدخل الحى السكنى .. وتغرى العساكر هناك وهى تحافظ على قوامها رغم امتلاء جسدها لكنها لم تكن مترهلة أو مسترخية البطن .. وسرت شائعة أن أبا شقرة – جارهم الحميم – له علاقة مشبوهة معها وبالذات بعد وفاة زوجته .. يبخل على أولاده من أجل أن يوفر ويعطيها .. إمعانًا فى الوداد وشراء لحظات السعادة الآثمة فى غياب الإيمان والقلوب خاوية . ورُضاب المحرمات أشهى من العسل عنده ...

كانت دليلة تستغرب كيف أن امرأة مثل نعيمة تتأتى الرذيلة سهواً رهواً .. فى الليل وتعود إلى رشدها المغلف بالنفاق نهاراً بوجه مكشوف .

إلا أن دليلة عندما تتذكر أنها لم تر جارتها فى فواحشها بعينيها تستغفر الله وتتعوذ به من الشيطان وهمزاته وتدعوه أن يستر عباده ويبعد عنها وعن بنتيها الصغيرتين كل سوء وفاحشة . لكن كلام الناس لم يتوقف، استمرت الشائعات تلاحق نعيمة القصاص رغم أن تحركاتها لم يكشفها أحد وهى تمشى بكامل زينتها تثير الحسد عند النساء والشهوة

عند الرجال وهى فى دلالها لاتستكين .

(١٠)

محمود عسقلانى .. وقد هدته صروف الدهر يقف فى طابور أمام المصرف وفى يده "شيك" هو كل ماحصل عليه . فى نهاية كل شهر .. بعد ذلك التاريخ العريض من النضال ، داخل الوطن وخارجه قريبًا من تخومه - كانت هذه الدولارات المحدودة العدد التتويج لخروجه إلى المعاش بعد أن خدم فى الشرطة الفلسطينية الخاضعة لسلطة الحكم الذاتى .. كثير من أمثاله الذين خدموا فى الجيش الفلسطينى أو تحت قيادة الفدائيين وبقوا على قيد الحياة احتوتهم السلطة .. لايعرفون إن كان ماقامت به حيالهم هو نوع من الاعتراف بالجميل .. أم لتهدئة خواطرهم المتمردة ، وبالذات أولئك الذين شاركوا فى الانتفاضة ، دون طنين الدعاية من أمثال "أبوسمير" ...

لم يكن راضيًا هو يمشى وقد وضع ذلك المبلغ البسيط فى جيب قميصه .. يرى الآخرين القادمين من الشتات الذين يعرف الكثيرين منهم يتمتعون بمستوى معيشة أفضل .. يركبون السيارات الحديثة ويقطنون المساكن الفخمة ، يقيمون المشاريع الضخمة وهو يأخذ مكافأة النضال ملاليم بالنسبة لغيره . شعر ببعض الغبن ... حدثته نفسه فى التماعة لخطوية .. أن يجمع رفاق الدرب الطويل الذين فضّلوا أن يبقوا داخل الوطن وساعدتهم الظروف على ذلك ، بعد عودتهم عبر الحدود ، بعد انسحاب قوات العدو من قطاع غزة وعودة الإدارة المصرية فى مارس سنة ١٩٥٧ ليقصوا على القادمين عذابهم ومعاناتهم وهم يتخفون ويتنكرون ويناورون ويهجمون ويفرون ويكرون .. والرعب يلاحقهم من العدو ...

داهمه عقله أثناء انفصاله وتذكر أن العصبية فى الحق ربما خذلت صاحبها وأسلمته إلى الضياع .. قد لا يوافق الآخرون إذا استطاع أن يجدهم

بعـد أن تفـرقـوا ، وكل واحـد منهم قـد صـرف صكه وراح يجـر قـدميـه المتعبـتين . . فكر أن ينتظر بداية الشـهـر القـادم . . ويدعـوهـم إلى مـسـيـرة احتجاج ، خاف على أسرته فإن ذلك قد يجلب له المتاعب وسنه لا تتحمل ثم إن جـاهل النقص يدل من نفسـه على قصـور . . وزيادة الهـمـوم تورث الوجع والقلق وهو الوحيد بعد وفاة زوجته التى كانت الذراع التي تعينه . رغم أن أولاده لم يتخلوا عنه ، أوفياء له ، لم يكن طامعًا بزيادة معاشه لأنه يكفي احتياجاته .

كـان اعـتـقـاده أن الزائد على الكفـاية فـضل . . والفـضل يُسـتـغنى عنه كثيراً. لكنه كان يبحث عن العدل الممزوج بالإحسان وبالاعتراف بذلك الدور العظيم الذى قام به مع من هم على جديلته وشاكلته . لم يكن يحب أن يكشف عورات غيره لأن ذلك عيب لا يستسيغه ، وهو الرجل الطاعن في العمر . . كان كل همه أن ينزاح الهم الكبير عن الوطن الكبير وأن من حابى خصمه غُلب ، كان يحز فى نفسه أن يرى جزءاً من الوطن وقد تهدم وترميمه بطئ . . والاهتمام منصب على الدعاية والإعلام . والإهمال من نصيب الإنسان ومايحتاجه من أمان . . . كان يعاني وهو يرى الطرق وقد تحفرت . . والغلاء يستشرى والمشاريع كلها استهلاكية ولاجديد في الإنتاج . . أحيانًا تجرفه أحاسيس غاضبة فيكظم غيظه . وأحيانًا يلوم الظروف الصعبة والتجربة جديدة والبعض ينتهز الفرص والرقابة ضعيفة . . والنفوس تستعذب الحرام . . تمنى لو أن الأمطار ترطل تغسل ماتراكم على الأرض من آثام حتى تبقى طهوراً من رجسهم وأوزارهم . . تمنى لو أن طوفان سيدنا نوح يعود وينور التنور ويُبنى العالم من جديد . . .

أطياف حياته تهمس له أن ماتبقى من العمر لاتمنحه القدرة على تغيير الشـرور ونشـر الخـيـر ، والكذب فى الحس مـوجـود ، والصـدق فى الوعـد منضـود ، فاسـتـشـرى الشـقـاء وفاضت الأطماع واشـتعلت الشـهـوات . . . والإرادة الفاعلة قد سلا عنها الفضول . فتمنعت كخاطف ظله من الطيور

ينقض على ظله فى الماء فيخطفه ومايخطف إلا السراب لكنه يكرر ذلك كأسطورة عارية من الحقيقة ...

استاء من واقع الأمور شعر كأنه يشم رائحة احترامه وتعجب كيف أخطأته رصاصات جنود العدو وهم يلاحقون "قدوحة" الأهبل وقد أوهمهم أنه أحد الفدائيين فى غبشة آخر النهار وهو يحمل بندقية أحد الأطفال بعد أن أخذها منه .. واتجه نحو حرجة قريبة .. وهو يهتف بحياة الوطن وأنه سينسفهم بعد أن يجمع أصحابه ...

حاصروه ..أمطروه بالرصاص . صمت المسكين .. كان العسقلانى قريبًا ، وهو فى طريقه إلى البيت .. انتشر الخبر بعد ذلك ، حزن الكثيرون . لأن قدوحة كان كالطفل البرىء . لايعرف من الحياة إلا القليل ..

حزنت "نعيمة القصاص" عندما اكتشفت أن الأهبل قد مات .. وكان كثيراً مايذهب إليها ... تهتم به ، يخرج من عندها أكثر نظافة وأكثر هدوءاً .. لايعرف أحد السر الذى كان بينهما . لكن أبوسمير تكهن بأن علاقة مشبوهة كانت تدفع "قدوحة" إلى معاودة زياراته .. لأنها لا تخرج من البيت فى اليوم الذى يذهب إليها .. كانت تردد كثيراً : إن أمثال الأهبل لابد أن نرعاهم فهم أبرياء لايعرفون الخطايا أو الذنوب .. وعندما مات قالت لمريم فى إحدى زياراتها بعد أن توفيت "أم سمير" التى كانت تبغضها ولاترتاح لزيارتها : إن حياة الأهل مضت كالحلم الجميل .. لم تفهم مريم معنى ذلك .. وقالت يرحمه الله ..

شعرت مريم بفراغ كبير بعد وفاة والدتها وكرست حياتها لخدمة والدها العجوز وكأن أقدارها قد وضعت خطتها لتقوم على راحة والديها فى أيامها الأخيرة .. فبعد أن ودعت أمها المريضة هاهى فى مراسيم جديدة مع والدها الذى يتهادى نحو آخر العمر وإن كان لايبدو ذلك قريبًا ، وهذا ماأسعدها ..

تألمت كثيراً وقد عنَستْ ولم يختبر أحد منابعها .. تملكها فرح حزين

عندما جاء "أبوإسماعيل الهندى" صاحب المقهى المشبوه ليطلب يدها من والدها وهو مطمئن إلى تلبية طلبه ، لأن مريم قد فاتها أوان القطاف ، فبدأت ثمارها فى الذبول .. وهى تنعى زمانها الذى جعل "الهندى" يتجرأ ويدق بابهم لتكون له "سالومى" جديدة فى مملكته التى لاتختلف كثيراً عن أوكار الرذيلة والمخدرات ، فمعظم الناس فى خان يونس يتجنبون التعامل معه إلا أولئك العابثون المدمنون على الموبقات والباحثون عن رقصة المتعة الأخيرة .. زفرت تنهيدات كثيرة حين أخبرها والدها بنية الزائر الغريب الذى دخل منزلهم لأول مرة ... تعجبت كيف تجرأ وأتى ؟ وهى العازفة عن غيره من الشباب الذين طمعوا فيها لحسنها وملاحتها المعقولة . وسمعتها الطيبة التى يريد أن يلطخها بحجة طلبه المشروع الخالى من شرعية القبول لديها .. لم تنكر وهى قد تخطت الثلاثين من عمرها .. أنها لم تعد تلك المرأة المغرية لمن هم أقل منها سناً أو لأولئك الذين يماثلونها .. لكنها لم تتصور أبداً أن يكون بينهم ذلك الكهل المتصابى ، سيئ السمعة . الباحث عن المتعة فى جسدها الطاهر البعيد عن الدنس ...

أراحها أبوها ، حين رفضه بلباقة . وهو يعرف رأيها السابق فى الرجال ، وإن داعبتها فكرة المغامرة الأنيسة فى بعض أيامها ، ودون أن يعلم بذلك .. لكن دافعيتها نحو المضى قُدماً فى خوضها قد اضمحلت وهى تقوم على رعاية والدتها . قبل موتها والتفانى فى خدمة والدها . ذلك العزاء المقدس بالنسبة لوجودها فى الحياة ... كانت كلما اشتدت معاناتها . تتضرع إلى الله أن يجنبها سقطات الشوق المدمرة التى قد تباغتها فى لحظات ضعفها فتنهار مقاومتها أمام الإغراء الشديد .. رغم ثقتها بنفسها وإيمانها القوى بالله كانت تحسد "ليلى خالد" لانشغالها بالنضال والفرصة معها وهى المحرومة منها وأحياناً تتمنى لو كانت مثل "دلال المغزى" أو غيرها من شهيدات الوطن ... كانت فرصتها كبيرة عندما فازت نائبة عربية فى الوطن المحتل من حزب "ميرتس" فى "الكنيست" واعتبرت ذلك فوزاً لها قد

يفيد فى التعبير عن الآمال المرجوة لمليون من الصامدين داخل الدولة العبرية وكانت تعتبر هذا الفوز إنجازاً وطنياً أكثر من فوز "رنا رسلان" الفلسطينية ابنة حيفا كملكة جمال الوطن المحتل لأن ذلك لا يضيف أى شيء إلى النسيج الوطنى مابين داخل الأراضى المحتلة وخارجها ، رغم أنها لم تنسى ماتهتم به الأنثى ويثيرها ، فالرغبة كامنة لكن الظروف ضاغطة والتمسك بالمبادئ يذيب الحب ..

لم تتجرأ وتتخطى ذلك الخط الواهى بين واجبها نحو نفسها ، وبين ذلك الواجب نحو والديها .. فجعلت نبض مشاعرها كأنثى يتلاشى وهى تعيش الواقع بعيداً عن الحلم . نامت على أوجاعها الحميمة دون أن ترفع صوتها أو تتأوه والرغبة تناوشها فى أعماقها داخل أُجاج وحدتها . لم تستطع أن تتخذ القرار ، فالأمر لم يعد مرهوناً بإرادتها بعد أن سوَّرت نفسها بصياغات الزهد والحياء الخالى من إباحية الركض وراء دهشة الوقاع المنشود لكل أنثى تتشوق اللقاء بروح طبيعتها دون تدخل يكبت انسراحها اللذيذ..

لم تفجر ذلك الصراع المشتعل فى صدرها ورضيت بأن يتصالح مع نقيضه بلا امتزاج أو حسم تنتصر فيه أنوثتها بقامتها السرحة وشبابها الناعم الحليم ...

كانت مقتنعة أنها لن تكون زوجة ناجحة فى زمن سادت فيه رذيلة الأرواح التى تتنافى مع شخصيتها الوجلة المخلصة لتعهداتها التى تبدو غريبة أو شاذة فى نظر الآخرين وقد غمرهم الاشتهاء ..

اعتبرت أن ارتباطها بأحد الراغبين فيها قضاء على عالمها وانطفاء لشعلتها البتول فبحثت عن السعادة فى مجال آخر وصاغت مفاهيمها بما يتمشى مع واقعها دون تمرد أو شقاء ... تنشد رضا ربها ووالديها . رغم ذلك الحرمان الذى تغوص فيه ... إلا أنها لم تشعر بروح الهزيمة لأنها تعمل ماتشتهيه بعيداً عن لذات الحياة الأخرى التى هجرتها مع بعض الأسف عليها فى ليلها الطويل . فالنفس أمارة بالسوء تحتاج إلى الجهاد ، لكى

تتجافى وتسمو ، وأصعب الجهاد جهاد النفس من وراء سابغات لاتحجب الكثير من مأوزار وآثام الحياة والنقاء الكامل خدعة كبرى فى حياة البشر .

(١١)

تنفس سمير بعمق ملحوظ وهو يقود سيارته الصغيرة إلى الصيدلية .. اعتبر تردده ضعفاً فيما يتعلق بفاطمة أبوشقرة لأن الطبيب أكد له : أن بإمكانه أن يتزوج دون أن يرهق نفسه . لكنه فضل أن يبتعد فهو لايضمن تصرفاته بقربها ونداء الجسد يدفعه إلى المزيد . تأنى بوعى وقال : خير لى أن أكون قليل السرور كثير المعرفة بنفسى وبالحياة التى تتجه إلى مزيد من التعقيد فى أسلوبها المتسارع فى تحضرها المدنى فعملت على المزيد من التفريط فى التعامل مع الآخرين والالتفاف حول الذات والحفاظ عليها من أخطار قد تتعرض لها لو استباح كل الرغبات ...

مر بصيدلية صديقه رمزى . واجهتها الزجاجية العريضة تعكس أشعة شمس الصباح ، سيارته "المرسيدس" الحديثة توحى بالثراء رغم أنه باشر العمل بعده لكنه كان يستغل حاجة الناس إلى الدواء أثناء الانتفاضة . يرفع الأسعار بلارحمة والناس يشترون وفى أيديهم رعشة الاحتجاج الصامت . لأنهم محتاجون وليس ذلك فقط ، بل إنه كان يتاجر بالممنوع من العقاقير والأدوية يصرفها بلا وصفة من الطبيب ويضاعف الثمن وبالذات تلك الحقن التى تساعد على الإجهاض ، لإخفاء جريمة محرمة فى بعض العيادات التى تهدف إلى مزيد من الكسب مهما كانت معاناة الغير من المضطرين أو العابثين ..

لكن رمزى ، رغم ثرائه الذى جعله أحد الأغنياء فى المدينة لم يصبه عيب الغنى الذى يورث البلادة ، بل بقى نشيطاً يسعى إلى مزيد من الكسب بأى وسيلة مستنداً إلى علاقة قوية مع أحد المسئولين أصحاب الإرادة الرسمية القوية .. شعر بموجة ساخنة تتجه إلى رأسه فترك رمزى

لحاله ، وأخذ يفكر بموعده مع فاطمة ، بعد أن كاد ينشغل عنها بذلك الماضى القريب الذى يحمل فى طياته الكثير من الظواهر التى تحتاج إلى مزيد من الفحص والتحرى ، واعداً نفسه أن يتفرغ لذلك بعد أن يرسو على بر الأمان فيما يتعلق بوضعه الخاص مع أخيه صادق الذى يرى أنه من الممكن أن يعهد له بالعمل فى الصيدلية وهو يكتفى بالإشراف على العمل من حين لآخر وبذلك يجد الوقت الكافى لإنجاز مشروعه بتأليف مجلد ضخم عن الواقع منذ ثورة ١٩٣٦ والإضراب الكبير الذى أثار دهشة العالم إلى اللحظة الواعية التى سيمتد إليها عمره بعيداً عن تزييف الحقيقة وبعيداً عن وجهة النظر الرسمية التى امتدت عبر تلك السنوات ، فأجبرت الأقلام على التحدث بصوتها ، دون تضمين وجهة النظر المقابلة التى يعرفها الشعب والآخرون ممن أرقهم ويؤرقهم الوضع الغريب فى العصر المريب عصر التفاوض ومفارقات التباين بين القوة والضعف ، بغض النظر إن كان بإمكانه أن يجد فرصة لنشر ماسيكتبه بعد أن يدعمه بالوثائق الصحيحة التى قد تكلفه الكثير . .

كان ينتهز أية فرصة يستمع فيها إلى شيوخ المدينة عندما يتحدثون عن ماضيهم فى الوطن قبل النزوح . فيسارع إلى كتابته بانتقائية بصيرته وقدرته على الحكم الصحيح على ماسمعه إن كان من شطحات الخيال أو من حقائق الواقع فى ذلك الزمان على ضوء ما درسه واطلع عليه بعد كثير من عمليات الغربلة والإنتقاء والمقارنة والسؤال عما سمعه فإن تكرر وتأكد من صحته كتبه . وقد أرقته حادثة قرأها وسمع عنها الكثير وتألم لأن كتب التاريخ لاتذكرها للأجيال الشابة كى تعرف مدى الظلم الذى تعرض له أجدادهم فيتخذون ذلك ليكون لهم دافعاً لخوض المعركة الفاصلة مع الغاصبين ، حتى لو كان ذلك قبل أو بعد "معركة هرمجدون" التى ستكون فى "سهل مجيدون" وهو سهل صغير فى فلسطين وبأن المعركة ستنشب بجيوش يصل تعدادها إلى ملايين الجنود أو كما تقول أساطيرهم بأنها معركة سينتصرون

فيها ويدمرون الوثنيين أو المسلمين على حد قولهم فى بحيرة النار المتقدة بالكبريت وأن جميع شواذ الأرض سينجون سواء أكانوا عرايا شيكاغو أو باريس أم مقامرى لاس فيجاس وشواذ فرانسيسكو ومدمنى ميامى ، أما المؤمنون الموحدون القانتون فسيهلكون ولو كانوا عند الكعبة لأنهم كنعانيون . وقد فسروا النار الكبريتية بأنها قنابل نووية يلقونها على المسلمين . هكذا يؤمن أحبارهم ومن يساندهم بتراث التوراة المحرفة ، ويعتقدون أن الصراع بين العرب واليهود هو صراع بين داود وجالوت الذى يسمونه "جوليات" وجالوت العصر هم العرب وداود هو دولة إسرائيل.

هذه الأصنام الفكرية جعلته يتألم وهى تنتشر فى أفكار الكثير من الغربيين الذين أعمتهم الدعاية الذكية المبرمجة للعدو وأصدقائه المخلصين أما حادثة مؤلمة تتعلق بأهل الأرض الأصليين فلا تذكرها صحف ولافضائيات العالم الذى يسمى نفسه "العالم الحر" وكان يفسر كلمة الحر بأنها الحرية فى كبت تاريخ الآخرين ونشر مايروق لهم ويتمشى مع مصالحهم كأسياد العالم أو حراسه المحتالين .

يتذكر تلك الحادثة أثناء غزوة نابليون ، والدموع تشق طريقها من بين الجفون .. فبعد أن استولى على يافا أسر ٤ آلاف من أهلها . ويروى الضابط "ميو" فى جيش نابليون الذى ادعى أنه يحمل الحضارة إلى الشرق .. وكان شاهداً على حضارة نابليون الذى خضع لتوصية التلموديين اليهود الذين مولوا الحملة المشهورة بأن يقتل الأسرى الفلسطينيين فقتل بعضهم بالرصاص والباقى بالسلاح الأبيض قرب مستنقع توضئوا فيه قبل إعدامهم.. وفهم شيخ حفر قبره بيديه ثم تسجى وهو يتلو الشهادتين وأهالوا عليه التراب وهو مازال يَلهج بما قاله سيدنا إبراهيم قبل أن يقذف فى النار : حسبنا الله ونعم الوكيل . وقد كررها سيد الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بعد هزيمة أُحد . توقف أمام باب الصيدلية وهو مازال يفكر وكأنه يهرب من حاله عجز تكاد تقعده عن العمل .. كأن حاضره

مفقود . يعيش خواء أيام مكرورة . . لكنه مسكون بالتفاصيل الصغيرة يجد فيها معنى كبيراً يفسر الكثير مما يحدث فى عالمه المحيط به ، تزعجه أبسط الأمور إذا كانت فى غير موضعها . وهذا بفضل أوضاعه النفسية التى تجعله رقيقًا فى علاقاته الشخصية . تنجرح عواطفه بسهولة دون أن يلحظ ذلك أحد غيره . . كلمة حانية تكفى لتبريد سخونة انفعاله . ساعده على ذلك ثقافته الواسعة التى حببت به الآخرين . يستشعرون بقربه الأنس وهو يجذبهم إلى شخصيته المهذبة العطوفة ، إلا أنه لايكن أعمق العواطف إلا لقلة قريبة من قلبه . وبالذات إلى فاطمة التى ينتظر قدومها بعد أن فتح الصيدلية وأخذ مكانه المعتاد خلف مكتبه الصغير يحدث نفسه بشىء من العزاء : لِمَ قلبى حزين ؟ هل للعملية أثر فى ذلك ؟ هل انتزع الطبيب جزءاً من شريان الفرح فى حياتى ؟ . .

لا أدرى . . كلما أقابلها يغلفنى الحزن . كأن هناك فراقًا بيننا ؟ أشعر بالقلق وهى تحدثنى عن المستقبل ، رغم أنها لم تخف شيئًا .

قد يكون مجيئها عذابًا يؤرقها فى ليلها . وقديكون بلا طائل سوى الرغبة منها فى إرضائى – حفاظًا على مشاعرى – قد يكون الخوف من الارتباط هو ما أشعر به ؟ وهى قد اتخذت قرارها . . سأطلب منها أن تكف عن المجىء رغم حبى لها – لا . . هذا سيسبب لى المتاعب ، قد أشعر بالإحباط. وقد أجعلها تتألم . . .

تدخل ، فيقلع عن مناجاة نفسه ، يستقبلها والبسمة على وجهه المكدود

قالت : هل تأخرت عليك ؟

– لم أشعر بالوقت . لقد كنت غارقًا فى بعض الأفكار .

– أين أنا فيها .؟

– لا عليك ، فأنا مهموم بك دائمًا .

– اخاف على عقلك من كثرة الهموم والأفكار . .

- وجودك يحافظ عليه .
لمعت عيناها وائتلفت . قالت : يبدو عليك أنك فكرت كثيراً ..
- التفكير جزء من وعينا ، لكن الهموم تضرنا .
- معرفة أسبابها تعطى معنى آخر للوجود .
- فلسفة جميلة .
تحسست وجهها قبل أن تسترسل في الكلام وبدا متوهجًا بعض الشيء .
- اعتدلت في جلستها ووضعت ساقًا فوق أخرى .. وقالت :
- جعلتنى أحبك ، لم يتوقف قلبى عن خفقانه بقربك أو في وحدتى .
أقلق كثيراً وأنت على موقفك .. بت أخاف على نفسى من هذا الحب .
أنجرف بعيداً أعيش في دفء الخيال معك قد تقول إننى رومانسية وأن حياتنا لاتتسع لمثل هذه المواقف ونحن على بوابة الألفية الثالثة لكننى ماقلت إلا الصدق وأنا أحتضن مشاعرى ترعاها جوانحى . لا أحتمل أن تتغير صورتك التى رسمتها لك في أول لقاء .. راضية بك كما أنت هذه رغبتى حقًا . فأنا كما تعرفنى . لم أتغير رغم زواجى القصير" .
أشجاه ماقالته ونفسه تحدثه : ليتها تعرف كم أُحبها وكم أشتاق لقربها . لكننى أخاف على نفسى من اندفاع عاطفتى التى قد تجعلها تفقدنى بسرعة رغم أن الأعمار بيد الله .. وقال :
- لا تقلقى كثيراً . أحبك كما أنت . أخاف فقط أن تستيقظى يومًا وتكتشفى ضباب الحزن ، وأن ما كان ما هو إلا حلم جميل انقشع كالسراب حين اقتربت منه ..
- أخاف أنك قد تأثرت بما قرأت من أننى "شؤم" أو "دنس" بعد أن أصبحت أرملة .
- هل تعتقدين أننى كذلك ؟
- عالمنا غريب . ومشاعرنا تتقلب حسب مانعتقد فيه .
- لا أحب أن تكون فكرتك عنى بهذه السلبية بعد طول جوار ولقاء

فهل يعنى أننى سأصبح مثل الأمريكيين الذين يتبادل بعضهم الزوجات لمدة معلومة لمجرد أننى قرأت ذلك .

– لكل أمة أعرافها وتقاليدها .

– تتغير مع الزمان ، إذا لم يكن هناك إيمان .

– ذكرتنى بماكان يفعله الإنجليز خلال القرن الخامس والقرن الحادى عشر حين كانوا يبيعون الزوجات . وكان للشريف النبيل ، روحانياً كان أو زمنياً الحق فى الاستمتاع بامرأة الفلاح لمدة أربع وعشرين ساعة من بعد عقد زواجها عليه ، الذى ينتظر والفرحة على وجهه وعروسه يستمتع بها غيره . .

– لكننى لست فلاحًا إنجليزاً ولا ذلك القسيس الذى كان ينام مع الراهبات داخل الدير كأنه زوج للجميع وهن ينتظرن دورهن بعد انتهاء القداس الأخير . .

– بعدنا عن لحظتنا ، لكنك أثرتنى وددت لو تخلصتى من أدران حياتى الماضية لأشعر بصفاء الطبيعة البريئة وأنا معك . مطالب جسدى تضغط على مشاعرى حين أكون أمامك . .

– أخاف أن تكون نزوة تهبط بنا إلى الحضيض عبر سراديب شهوتنا بسبب حرماننا . وأحاسيسك قد تفتر مع مرور الزمن وأبقى وحيداً مع آلامى . إذا بقيت على قيد الحياة .

– لا أظن بعد تلك السنوات أن ما بيننا نزوات ، كلانا جسد بلا روح إذا لم نلتق .

تقلصت عضلات وجهه بعد أن سمع ماقالته ولم يخطر بباله أن تكون بهذا النبل من المشاعر الرقيقة . رغم النبرة الصادقة التى تكلمت بها إلا أنه ارتاب فى نفسه ، فكمية السعادة التى قد يحصل عليها لا تلغى تلك الهواجس والمخاوف من اللقاء والارتواء . شعر بأن ركناً منه قد تحطم وبقى يتأمل وجهها وانعطاف فمها عند نهاية شفتيها واختلاج جفونها . كأنها شعرت بما يدور بداخله ، وهو صامت بلا إيقاع .

- كسرت الصمت وقالت : مابك ؟ هل أخطأت التعبير عما فى نفسى، أم كانت مفاجأة ؟

- ليست مفاجأة ، لأننى أعرف موقفك . لكن أفكارى لاتساعدنى تهرب منى .لم أعد أفهم الفرق بين أحلامى والحقيقة .

- تبسمت وقالت عاتبة : كنت أتوقع ماتشعر به لكننى لم أطلب منك أكثر مما عندك .. لم تعدنى بشىء . إلا أننى أتوقع أن يحدث شئ ما لصالحنا ستقدم عليه .

- قال بشىء من الأسى : لاتتوقعى الكثير .. فالمستقبل غير مضمون استأذنته ومشت متثاقلة بشىء من الرقة والرشاقة الهادئة أما هو فقد رجع إلى مكانه والصداع يأكل ماتبقى من تفكيره فيها وفى ذاته ...

وما أن خرجت حتى كان أذان الظهر فاستغفر ربه ونهض ليتوضأ ويصلى عسى الله أن يهديه إلى الصواب ويبعد عنه شرور الأوهام والشكوك وهمزات الشياطين ..

(١٢)

استغربت مروة أن تعود الحرارة إلى الهاتف بهذه السرعة .

- فقد تعودت أن يطول ذلك لسوء وتكاسل مصلحة الصيانة الخاصة بالهواتف ، لكن عندما يأتون لتحصيل الرسوم ينشطون ، رفعت السماعة يأتيها صوته ، تعلو نبراته فتقول :

- لا أصدق أذنى .. انتظرت ذلك طويلاً .

- ....؟

- أعرف أن الموضوع يحتاج إلى وقت . لكننى لم أتصور أن تنجزه .

- ..... !!

سأكون فى المكان حسب الموعد ، لا تتأخر .

تضع السماعة . تمشى فى الغرفة جيئة وذهاباً . ليس لها رغبة فى

الجلوس ، تقف أمام دولابها ، تتمايل ، تختار "بلوزة" سماوية تتناسب مع لون "بنطلونها" الأسود "الجينز" موضة هذه الأيام .. تجلس بجانب سالم في سيارته "الفولكس واجن" . وقد رجته ألا يغيرها لأنها معجبة بصغر حجمها وانسياب شكلها الخنفسائي . كان يرغب في تغيرها بعد حفلة الخطوبة ...

قال لها : لماذا اخترت هذا المكان ؟

– لأنه بعيد عن الناس في خان يونس . وغزة أكثر تحضراً .

– تخافين من عيون الناس .

– الحسد وارد .

– أتغارين ؟

– لا أنكر ، لكن ليس إلى حد الهوس .

– هذا معنى كريم .

– قل لي ماذا تم فيما يتعلق ..

– تقصدين السفر ، سيكون لكني أجلته إلى مابعد الزفاف .

– أدهشني أنهم وافقوا .

– يحتاجون إلى الكثيرين .

– هذا طموح أحبه .

– ذلك يريحني .

– أن أكون بجانبك .

كان الصبا مرسوماً على جسدها وهو ينظر إليها . أبعدت عينيها حتى لا تضعف أمامه ... وتطلب منه أن يعجل بالليلة الموعودة .

قال : مارأيك بكأس من الليمون البارد ؟

– أكاد أتعود عليه .

قال مبتسماً : إن حياتنا مجموعة عادات .

– أحاول ألا أدمن على شيء .

– حتى أنا .

–عواطفى تشدنى .

– باتجاهى طبعًا .

– ليس لى حيلة . والأمر مختلف ، وإن كنت تعودت عليه .

– المحبة وليدة التعود .

– لكن الحب أقوى .

– فى البداية . ثم تأتى المحبة .

– لن نختلف .

ننتظر إلى ساعتها فيقول : هل هناك مايشغلك .

– مجرد عادة .

يبتسمان والنادل يضع كوبين من الليمون فيهما قطع صغيرة من الثلج .

وبعد أن ينصرف يواصل الحديث قائلاً :

– بعض تصرفاتنا الصغيرة تكون بلا إرادة منا ، عفوية .

– كذلك بعض الميول .

– مارأيك فيما أخبرتك به "بالتليفون" .

– رغم أننى أرغب فيه ، لكننى فى حيرة .

– لابد من قرار .

– ماتراه . أوافق عليه .

– لكنك كنت منفعلة .

– أمر طبيعى ، لم أستطع أن أكتم انفعالى .

– طبيعتكن وعواطفكن مكشوفة .

– وماذا عنك حين كنت ترانى ؟

– كنت أكثر تعبيراً عنكن .

تبتسم وتقول : تتهكم وتضاهينى بأسلوبك الساخر .

– أظن أننى لم أتجاوز حدودى .

- تجيد التحدث وأحب أن أستمع لك خصوصا عندما تتكلم عن المشاعر والأحاسيس .

- لكنى أحب أن أستمع إليك هذه المرة !!

- لا تتعجل .

- اسمعنى : قلقي يتنامى فى ليلى .

- القلق . دليل الاهتمام .

- بك !!

- موقف أحسدك عليه .

- لماذا ؟

- أوضحى .

- قرأت أن القلق يثير الأحاسيس .

- ويؤجج العواطف إذا تعلق بالحب .

- صحيح ولكن معايشته مؤلمة .

- إذا كان الانتظار طويلاً .

- حياتنا كلها انتظار .

- أمور نسبية حسب طبيعة ماننتظره .

- أيًّا كان الأمر فهو صعب .

- تحبين التفاصيل والتدقيق .

- أيضايقك ذلك .

- نوع من التميز أثارنى . جعلك تختلفين عن الأخريات .

- كيف ؟

- تهتمين بجوانب الموضوع وهذا يدل على قوة التفكير .

- هل هذا كل ماقربك منى ؟؟

- إنك جميلة وتهتمين بنفسك ، ثم إنك ربة بيت ممتازة كما سمعت عنك .

- تعرف الكثير عنى وهذا يطمئننى .
- لم يكن اختيارى لك مصادفة . لقد سهدت كثيراً وطال أرقى ..
- صعب أن تكشف عن أحاسيسك الآن وقد نلت ماتمنيت .
- تحاصرنى كلماتك ، لكننى وقبل أن نرجع إلى خان يونس - حتى لايقلق الأهل - أقول لك بيتًا من الشعر الجميل أردده دائمًا .

قالت : أسمعنى حتى أرد عليك .

قال :

وحبك ينسينى عن الشىء فى يدى .·. ويشغلنى عن كل شىء أحاوله

قالت وصدرها يعلو مغتبطًا :

وبى مثل ماتشكوه منى وإننى .·. لأشفق من حب أراك تزاوله

قال : كم أنا سعيد لأنك معى ، وقد كنت مثل "وهب بن زمعة" وأنت تتمنعين .

قالت مندهشة : من هذا ابن زمعة ؟ وضحكت .

قال : ألا تعرفين أبا دهبل ؟؟

قالت : "وكمان" أبو دهبل أسمعنى ماقال . !!

قال : عندما صدته حبيبته "عمرة" قال متأسيًّا .

وبت كئيبًا ما أنام كأنما .·. خلال ضلوعى جمرة تتوهج

قالت مازحة : مسكين ، لن أجعلك مثله بعد الآن .

كان الطريق خاليًا ، والسيارة تطويه وأشجار الجميز الضخمة تحرسه وتسجل على أوراقها ابتسامات وآهات العابرين ذاكرتها لاتنسى الآلام ولا المسرات حتى بعد سقوط الأوراق حين تنوء بحملها فالجذور باقية تختزن كل شىء فى عين الأرض الساهرة والكواكب الخنّس تنتظر فى عليائها ماتحمله فى رحمها . لتحفظه من شرور العابرين وهم يفتشون فى غطش الليل عن دليل أضغانهم وأحقادهم علهم يزكون أنفسهم فى مدافن التاريخ وعنتهم يلاحقهم وهم يحملون تابوتهم وعليهم الذلةُ المسكنة ...

الاعتقاد بالأذى يصيب من يعتقد به .. والذى يخاف من القرد يطلع له .. قال أبوسمير ذلك لابنته مريم وهى تخبره بما رأته فى صالة البيت فى بعض الليالى ولعدة مرات .. كانت قد شاهدت رجلاً قصيراً جداً يلبس عمامة كبيرة يتمشى فى صالة البيت فارتعبت وبسملت وحوقلت ودخلت المطبخ مسرعة لتأخذ شيئاً لتضربه به وعندما اقتربت منه اختفى ، تعوذت بالله من الشيطان الرجيم ، ارتابت فيما رأته وقررت أن لاتخبر أحداً . حتي لا يسخروا منها ثم لعدم تأكدها من أن ذلك المشهد هو من تهويمات الخيال والهواجس . لكن عندما تكرر ذلك تأكدت أنه ليس وهماً فصممت على أن تخبر والدها الذى لم يصدق واعتبر ذلك من همزات الشيطان أو تهيؤات فى حالة الصحو المفاجئ وسيطرة النوم على العيون وعدم تمام الوعى. لكنه وإرضاءً لها قرر أن يسهر ليراقب الصالة أثناء الليل . رغم أن ذلك سيرهقه فى عمره الكبير وقال لها :

إذا ظهر وكنت نائماً أسرعى وأيقظينى ..

قالت وهى ترتجف كفأر خرج من سفينة غارقة :

– إن شاء الله ..

اقترب الليل والقمر يسرح فى السماء . أصوات زغاريد الفرح لعلعت فى بيت أبى كمال – جارهم – فى ليلة زفاف ابنه كمال ... وبما أنه كان موسراً من تجارة السيارات المستعملة والمسروقة فقد أحضر فرقة موسيقية وبعض المطربين ودعا وجهاء البلد ..

فتحت النافذة المطلة على منزل الفرح . تمردت بعض أحاسيسها وهى ترى الجميع يتوافدون فى ملابس تتلألأ تحت الأضواء الملونة العديدة .. حتى فقراء الحى هرعوا بملابسهم العادية ليستمعوا إلى أبى محمود القمرى وهو يصطدح بأغانى أم كلثوم وعبد الوهاب .. وإلى عازف الكمان المشهور البحرى وعازف العود "أبوحجاج" وآخرين أمثال "أبوالسعيد" و"أبوحمار

الطبال" . تبسمت وكادت تتحول ابتسامتها إلى قهقهة عندما مر بخاطرها اسم الطبال .. استمر انفراج شفتيها وهى تتابع الحفل الساهر .. داخل المنزل الكبير ببوابته الكبيرة التى تسمح لهاأن ترى بوضوح مايجرى هناك .. كانت النساء والفتيات يتجهن إلى المكان المخصص لهن والذى يفصله عن مكان الرجال ممر بعرض متر تقريباً ..

جاء والدها . طلب منها أن تذهب لتشارك الجيران فرصتهم اعتذرت وقالت :

لا أحب السهر كثيراً ، هذه الأيام ، ويكفى أن أتابع من هنا .

قال : سأذهب لأجاملهم وإن جاء سمير وصادق أخبريهما أننى فى الحفل ، وعليهما أن يلحقا بى .

تركها وهى مازالت فى مكانها جالسة على طاولة صغيرة الحجم . طويلة. تسمح لها بالنظر دون تعب الوقوف .. شاهدت أبا إسماعيل الهندى . ارتجفت لواطفها . وأشاحت بوجهها وهو يعبر البوابة وسط ترحيب أهل الحفل .. بصوتهم المرتفع . فاستغربت كيف يحظى هذا الرجل بمثل هذه الحفاوة وهو سكير . ماجن يتاجر بالمخدرات ويدمر النفوس. تساءلت : هل يتعاملون معه ؟ أيحتاجونه الليلة ؟ لزيادة الكيف .. والانبساط كما يُشاع ... هل يُعتبر تعاطى المخدرات فى هذا الزمن من "اكسسوار الرجولة ؟ ..

توقفت قليلاً عندما ذكرت كلمة الرجولة .. فكرت فى معناها والضجيج يعلو ويختلط مع أصوات الغناء والموسيقى وصياح المعجبين وزغاريد النساء .. تشوش ذهنها وهى تجمع أفكارها عن تلك الكلمة وفحواها وأمامها صورة والدها وأخويها اللذيْن لحقا بوالدها .. وصفات قرأتها فى الكتب والروايات . خلصت إلى أنها قد تعنى القسوة والتجبر على الغير وبالذات على النساء داخل البيوت وأمامها شخصية السيد أحمد عبد الجواد فى ثلاثية نجيب محفوظ . كيف كانت قسوته داخل بيته

وحنيته ولطفه مع العوالم والساقطات يمارس الوجه الآخر من الرجولة رغم فحولته المتلاشية .. أم أن الرجولة فى قوة الرجل الجسدية قد يكون ذلك فى بعض المجتمعات البعيدة عن التحضر . لكن هذا المعيار لاينطبق على الكل..

فكرت فى الرجل وقوته الجنسية . حين شاهدت كمال يجلس بجانب عروسته . فى أبهى زينتها . والطرحة البيضاء تزين رأسها .. تنهدت بعد أن نظرت إلى نفسها في مرآة الدولاب الصغير فى الجهة المقابلة لمكانها ...

همست لنفسها : لم أمارس ذلك مع أحد . كيف لى أن أحكم . إلا أننى قرأت عن ذلك فى بعض الروايات المكشوفة . أستطيع أن أتصور مايجرى لكن ليس بدرجة من جرب ارتعشت قليلاً وساخت أطرافها . رغبت وسط ذهولها من نفسها لو أن الليلة ليلتها . تذكرت بعض أحلامها الوردية بالصورة التى تعرفها دون إيغال عميق فيما هى عليه فى الواقع المعروف بين أى رجل وامرأة ..

رجعت إلى حوار الذات وأكدت : لابد أن تكون الرجولة هى ماسيجرى بين كمال وعروسه . تلك الذكورة بفحولتها المبهمة الغامضة بانتصابها ، بشبقها المستمر ومداومة الاتصال الغريب عنى . والمألوف عند الكثيرين غيرى .. هل يقتصر على ما أعرفه من مادة الأحياء . تلك الحاجة البيولوجية التى يطلبها الجسد . فيسعى إلى الاشباع وينتهى ذلك التوتر الوقتى . لتبدأ أمور أخرى أكثر إلحاحًا بعد انقضاء الوطر وفتور الرغبة الجامحة وبعد ذلك هل تبقى الرجولة بهذا المعنى اللذيذ من اتصال وانفصال ومعاودة وتوقف ؟؟ ما هى إذن ؟ .. هل تكون فى التعامل الأمين واحترام الغير . والمكانة المرموقة فى المجتمع .. أو هى الشعور الذى يتملك الآخرين عند غياب بعض الشخصيات المتكاملة فى صفاتها وتعقلها وتوازنها ...

أم هى ما أشاهده فى والدى .. من تماسك أمام نوائب الدهر ونكبات الزمن .. وهو يتحمل كل صعب من أجلنا حتى ونحن فى سن الكبار

يتابعنا ويقوم على رعايتنا وتقديم المشورة لنا يعلمنا الحياة وهو يمتص غضب أقدارنا ويجبرنا على احترامه لتاريخه العظيم فى كفاح الاحتلال بلا خوف من سطوة الأعداء أو جبروتهم ولكن ليس بتهور أو اندفاع .. كان مقنعاً ومازال . كسب احترامنا واحترام الجيران ومن تعاملوا معه .. لم يكن فى يوم من الأيام محط شك أو ريبة ..

أم أن الرجولة فى ذلك الشخص الذى يحاول أن يبدو كاملاً . والكمال لله . يدارى نواقصه ويخفى مثالبه عن الغير إلا أنه يبدو عارياً أمام أولئك الذين يتمتعون بالفراسة وشفافية الروح ..

أم هى كل ذلك .. شدتها رقصة العروس وهى تتمايل بدلال واعتزاز وهى تحتفل بأنوثتها .. تختال فى حركتها وخطواتها .. تقدم بعض الرجال والنساء من كمال وأجبروه على النهوض لينضم إلى عروسه ويكمل طقوس الرقصة . هلل الحاضرون وعلت الزغاريد وهو يمسك يديها ويدور معها وعلامات الفرح بادية عليه .. فى هذه اللحظة أغلقت مريم الشباك . ونهضت من مكانها واتجهت إلى صالة البيت ... تمنت لو يظهر شبح الرجل القصير لتناجيه أن لا يرحل . امتعضت عندما رأت الصالة خالية وأسفت على حظها العاثر الذى حرمها من أمنية غريبة ، سببت لها الخوف والفزع فى ليال سابقة وقد ترعب الآخرين لو سمعوا عنها .. وآثرت أن لاتخبر أحد لو ظهر لها فيما بعد ..

أقفلت نور غرفتها التى أصبحت لها بعد زواج أختها مروة من "الدكتور" سالم وسفرهما إلى فرنسا للعمل مع مجموعة "أطباء بلا حدود" بعد أن ضجرا من الواقع البليد الذى فرضه التفاؤل الساذج بأن ماسيكون هو أفضل مما كان ، لم يتحملا العيش فى حالة تتأرجح مابين الموت والحياة وقد أثارت رغبتهما كثيراً من الاستهجان من الأهل والأصدقاء .

بررا تصرفها بأن عملهما قد يعود بالفائدة على شعوب أشد فقراً وعوزاً وهم يشعرون أن حياتهم ستنتهى . والعالم غافل عنهم فى اللحظة

الحاضرة . حياتهم ضياع وأيامهم خواء وهم يحتضرون أكثر من مرة لايستطيعون تغيير حاضرهم ولاحتى الهروب منه . فيجترون آلامهم وحلوقهم جافة بعد أن فشل العالم المتمدين بقوته فى التخفيف عنهم حتى لو بشىء من الأحلام فى مستقبل أفضل .

قالت مروة قبل أن تسافر فى لحظة وداعهم : إننى أحلم أن أخفف من مآسى الآخرين وأنا أقوم بخدمتهم باسم الإنسانية العالمية . بعد أن انسحب الرسميون على الطريقة الإنجليزية متسللين دون استئذان من ضمائرهم .

كان سالم ينظر إليها بإعجاب كأنها خير النساء . تسره إذا نظر وتطيعه إذا أمر ولاتخالفه فيما يكره فى نفسها وماله .

حاولت مريم أن تنام ، لم تقدر ، فصخب الفرح مازال وسيستمر كالعادة إلى قرب الفجر . أشعلت النور مرة أخرى وتناولت كتاباً عن الأبراج والحياة .. ترددت أن تفتحه فى البداية لأنها لاتؤمن بما يقوله الفلكيون فالغيب ملك الله . لكنها تكاسلت وارتضت به وهى تقول كأنها تخاطب مؤلف الكتاب : أعرف أن ما سأقرأه ليس علماً لأن العلم هوكل معرفة تؤدى إلى حقيقة . سأقرأ إلى أن يغلبنى النعاس وتثقل جفونى فلا أشعر بما حولى .. كانت أول صفحة تبدأ :

– الأسماء الضخمة تحيا مستقلة عن حياة أصحابها ..

– تطلُّع العربى للحدث الذى يحمل النبأ الجديد هو ماجعل اللغة العربية تضع الفعل قبل الفاعل فى ترتيب مفردات الجملة الفعلية ..

قلبت الكتاب ، تعجبت من هذه المعلومات التى تختلف عما توقعت أن تقرأه . اكتشفت أن الغلاف ليس الغلاف الأصل للكتاب وتذكرت مداعبات أختها مروة وهى تُغير الأغلفة . أحيانًا على سبيل النكتة والمزاح ، لتثيرها درءاً للمَلل . ثم واصلت الاطلاع بصوت مسموع لتتغلب على أصوات الجيران فى فرحتهم ولتشعر بالصداع – فقد يأت النوم – وشرعت تقول :

- الجديد يثير شعور التعجب ويلفت النظر ويثير الدهشة . أما القديم فيثير الذى يقيد الخطوات ويحكمها وهو يرتب المقدمات مع النتائج التى تتولد عنها .

- اللا معقول هو الذى لايلتزم ترتيب اللاحق مع السابق فى سياق الحديث .

- أيام الأسبوع بدأت فى بابل .

- مع اكتمال القمر يكتسب الرياضيون مهارات جديدة ويكون بعضهم أكثر نشاطًا .

- مع اكتمال القمر يزداد نزيف الدم للمصابين بالهيموفيليا .

- قال زدروزدفيسكى البولندى : إن طول الإنسان يتناقص فى المساء . وإن حركاته تصبح أكثر دقة منها فى الصباح .

- نشعر بالتعب عندما نطير مسافات طويلة مع فروق الزمن وعندما نصحو باكرًا قبل الميعاد بساعتين أو ثلاث وهذا مايعيب الطيارين فيضطرب نومهم وتضعف أعصابهم وقد ينهارون .

- الحساسية من المواد الطبيعية كالتراب وحبات اللقاح تصل إلى أقصى مدى لها فى المساء بينما تكون أعلى درجة لمقاومتها فى الصباح .

- الغدد الهضمية تفرز أعلى مايكون فى منتصف فترة الاستيقاظ ، ولذا ينصح الأطباء أن يتناول الإنسان ٦٠٪ من طعامه قبل الساعة الرابعة مساء .

- ازدياد النشاط الشمسى يزيد معه تفشى الأوبئة على الأرض بين الحيوانات والنباتات وحتى بين الناس .

- النشاط المغناطيسى المكثف يزيد من الاضطرابات الدموية .

قفلت الكتاب بعد أن تعبت من هذه المعلومات المتباينة ونهضت لتناول حبة من الأسبرين . ليساعدها على النوم بهدوء . .

(١٤)

سمير وصادق يراجعان حسابات الصيدلية قبل الإجازة السنوية التى يعرضان عليها . رغم أن ذلك يعود عليهما بالخسارة المادية . إلا أن سمير لايعير ذلك اهتماماً كبيراً وقد تأثر به أخوه فوافقه على رأيه . وهما يجمعان ويطرحان ويحصيان لا يهتمان كثيراً بنسبة الربح العالية . ففى قلبيهما رحمة للناس الذين يشترون منهما وعلى وجوههم آثار ضنك الحياة ومقت الواقع . . كسبا احترامهم فتزاحموا عليهما والقليل المتواصل خير من الكثير المنقطع . . .

وبعد أن انتهيا سأل صادق أخاه عن موضوع يتعلق بالوضع حسب معطيات الحاضر بعيداً عن مكاسب وخسائر الصيدلية :

– لماذا نسمع دائماً مسميات تؤكد على سلبيات الحاضر ؟

– سؤالك غامض بعض الشىء ، فالمسيمات كثيرة .

– أعنى تكرار إسرائيل مثلاً بدل فلسطين المحتلة .

– لأنها موجودة . دولة قوية .

– بغير حق ، والدعاية تثبتها فى الأذهان .

– أنا معك لكن وكالات الأنباء العالمية مهيمنة ونستقى منها الأخبار .

– يمكننا أن ننتقى ونغير حتى لا تتخاذل الأجيال ، والأسماء تتغير .

– من يسمعنا لا يصدق .

– لكنهم يعرفون الحقيقة ويتغاضون .

– زمانهم الآن لابد من الانحناء للموجة العالمية .

– أستغرب منك هذا الكلام !!!

– لا تنفعل ، حل المعادلة ليس بيدنا الآن .

– لننتظر القادمين ، لعلهم يقدرون . لكن المسميات يجب أن تبقى كما كانت . حتى أنهم بدل أن يقولوا قضية فلسطين ، أو قضية العرب ينساقون وراء الآخرين ويقولون مشكلة الشرق الأوسط .

– أنت تعرف أنهم قادرون وبعضنا يتسترون ولا يقدرون
– حتى أنهم يطلقون على الشهداء "انتحاريون" .
– هذا بمفهومهم لكي يسيطروا على العقول بمفاهيمهم .
– إذن أنت معى ، لقد أخفتنى فى البداية .
– لا تنسى أننى أكبر منك وأعرف كيف أتعامل مع الواقع.
– نحتاج إلى تغيير تلك الاصطلاحات الغريبة .
– لا مُشاحة فى الاصطلاح .
– لا ينطبق ذلك على مصطلحاتهم . لابد من مجادلتها .
– لقد سبقونا وبدءوا كل مانستخدمه الآن .
– في مجال الاصطناع ، لكن الشرف والشهامة والكرامة فلنا نحن .
– مفاهيم فضفاضة الآن . أتعرف أن علامة النصر التى نرفعها مبتهجين في وقت محاقنا وبعدنا عن النصر الحقيقى إنه تشرشل ابتدعها أثناء الحرب وهى أول حرف من كلمة victory
– هذه لا تضر .
– يا أخى العناد لايفيد الآن ، أشياء كثيرة تغيرت ، انظر حولك .
– كلب جائع وآخر متخوم والمسافة بينهما يصعب تخطيها .
– ليس يهم أن نعرف ذلك ولا حتى أن نعرف كيف نموت إن ما يهمنا الآن هو أن نعرف كيف نعيش .
– الموت يتم فى لحظات ، لكنه يجعلنا نجأر بالعويل .
– عليك أن تحصل على شهادة الأيزو لكى تستمر فى الحياة .
– حسب مقاييسهم !! قلت لك مفاهيم مقلوبة – قد تستغرب لما سأقوله لك .
– لا غرابة فى هذه الأيام ، كل شيء متوقع . أفصح .
– سأتزوج نعيمة القصاص .
– مستحيل !!

– تناقض ماقلته قبل الآن . ألم تتوقع ذلك ؟
– فاجأتنى حقًّا . ألم تجد غيرها . ؟
– أحبها – إن أجمل شيء فى الوجود أن يجد الإنسان من يفهمه ويشاركه رغباته .
– نعيمة القصاص ، العجوز ! إنها فى سن أمك !! ألا تستحى .
– الحب يلغى الفوارق .
– هل هذه نكتة . أو دور جديد تقوم فيه بدور الضحية كما كنت تحب أن تقوم بذلك فى مسرحيات المدرسة .
– ذلك رجع قديم .
– هل حقًّا ماسمعته ؟
– نعم وأرجو أن تصغى باهتمام . لقد قررت واتفقت معها على كل شيء .
قاطعه : أن تبيع نفسك ! لقد اشترتك كما اشترت غيرك من الشباب .
– لا تشتمها . ستصبح زوجتى ، يعنى زوجة أخيك .
– أرجو أن لايحدث ذلك .
– إنك تستخف بمشاعرى . أحببتها لأنها تشبه أمى .
– اخرس لا تشبهها بأمنا . هذه . . .
– إن ما سمعته عنها ليس صحيحاً .
– حتى هى شيء وأمنا شيء آخر .
– لكنها تشبهها . هل نظرت إليها عن قرب .
– لا تثرنى . أرجوك أبعدها عن والدتى .
– لا تغضب . هكذا رأيتها .
– أعمى تستحسن القبيح .
– سأسامحك . كانت مفاجأة .
– هل علم أبوك بذلك ؟

- أخبرته .
- لكنه لم يقل لى . إنه لايخفى شيئًا عنى .
- رجوته أن لايقول لك شيئًا وهأنذا أخبرك .
- ماذا كان موقفه ؟
- ثار مثلك ، وتوعدنى ، رجوته كثيراً وأفهمته موقفى .
- ماذا قال ؟
- "اللى يشيل قربة مخروقة يتحمل" ولم يزد شيئًا .
- صدق . لكن هذا لايعنى أنه موافق .
- لكنه لم يَعترض بعد ذلك .
- يبدو أنك تحب العجائز !!
- ليست كذلك .
- أعمتك بغنجها هذه الشمطاء .
- لاتزد وتجرحنى .
- مرهف الإحساس الآن .
- لا تسخر منى فذلك لن يغير من موقفى .
- ستهرم بسرعة ويسقم بدنك وقد تموت فجأة .
- من قال ذلك . ؟
- الذين وقعوا مثلك وقالوا عنهم .
- ليس كل مايقال يُصدق .
- حصل فكرت بأختك مريم ؟!!
- وما شأنها بذلك . !!
- لن تتزوج ، سيهربون منا .
- إنها ترفض الزواج ، لا تحبه ، هذا موقفها .
- قد يتغير . فلا شىء ثابت فى الحياة .
- سيأتيها نصيبها . . . لو رضيت . .

ـ غَيَّرَتْكَ الخنفساء .

ـ تقصد سيارة سالم التى اشتريتها قبل أن يسافر .

يضحك ويقول : فى أصعب المواقف تجعلنى أضحك . عادتك !!

أقصد نعيمة . الخنفساء الكبيرة .

ـ لم تخالطها ، فلا تحكم عليها .

يصمت . فكر أن يقول له أن الخنفساء إذا مُسَّتْ نَتَنَتْ وأنها امرأة خبيثة . نظر إلى أخيه ، وجده متجهماً فأيقن أنه جاد ولاسبيل إلى تراجعه عن موقفه فقال له بشىء من الود والإخاء :

ـ لن أقف فى طريقك ، عليك أن تتبصر قبل أن تنفذ رغبتك .

ـ قلت لك أحبها وهذا يكفى .

ـ أخاف أن تكون شهوة مؤقتة .

ـ هناك غيرها لم يثرن حتى نزواتى .

ـ تعجبنى شجاعتك . إنك أثرتنى وجعلتنى أعيد التفكير .

ـ لا أفهم .

ـ شجعتنى أن أذهب إلى فاطمة .

ـ أم شيرين . .

ـ نعم .

ـ لماذا ؟

ـ لكى نتفق على الزواج .

ـ وحالتك الصحية .

ـ لن تكون إلا ماهى عليه .

ـ توكل على الله .

ـ لا عُوار فى الأمر . .

أصوات خارج الصيدلية . يخرجان . جموع من الناس يحملون لافتات . يقرأ صادق إحداها لا تفاوض مع استمرار الاستيطان

يسمعان : اليوم لاسلام .أرضنا لنا .

يقفلان الصيدلية ــ عندما يشاهدان والدهما وأختهما مريم بين الجموع يلحقان بهما ويسيران مع المحتجين في يوم الغضب والخناجر تأخذ دورها بعدما صمتت المدافع ..

كان ذلك في يوم الخميس الثالث من شهر يونيه حزيران سنة "تسع وتسعين وتسعمائة وألف .

يبتهج أبوسمير وأولاده معه يشاركونه لوناً آخر من النضال وحوله رفاق الأمس "أبوخليل والنجار والحداد .. والفارق كبير بين ماكان ومايكون .

تمت بحمد الله

الفهرس

المؤلف

- ممدوح يعقوب القديرى
- مواليد ١٩٤٤ ، يافا – فلسطين .
- يعمل بتدريس اللغة الإنجليزية .

– صدر له :

- أدب الطفل العربى (دراسة) ، مركز الحضارة العربية ، ١٩٩٩ .
- الهروب مع الوطن (قصص قصيرة) ، مركز الحضارة العربية ، ١٩٩٩ .

– تحت الطبع :

- الهبوط إلى الجنون (رواية)
- مقالات فى الحياة والأدب – (دراسة)

من قائمة الإصدارات الأدبية

رواية .. قصة

العنوان	المؤلف
ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط
رقرقة الأحلام الملحية	إدوار الخراط
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
لا أحد يحبك	أماني فهمي
دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطاني
مطربة الغروب	جمال الغيطاني
دموع إيزيس	حسنى لبيب
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازي
الحب والثأر	خالد عمر بن ققه
أيام الفزع فى الجزائر	خالد عمر بن ققه
يومية هروب	خيرى عبد الجواد
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
حرب اطاليا	خيري عبد الجواد
حرب بلاد نمنم	خيري عبد الجواد
حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
الطريق والعاصفة	رأفت سليم
فى لهيب الشمس	رأفت سليم
اركبوا دراجاتكم	رجب سعد السيد
أنا كتنده	كيروجا ترجمة : رزق أحمد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
شجرة الخلد	سعد القرش
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
الممنوع من السفر	شوقي عبد الحميد
الدميرة	د.عبد الرحيم صديق
جسد فى ظل	عبد النبى فرج
الفوز للزمالك والنصر للأهلى	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحد	عبده خال
صعيدى صنح	د. عزة عزت

العنوان	المؤلف
الشاعر والحرامى	عزت الحريرى
فى انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيرى
إينارو	د. على فهمى خشيم
تحولات الجحش الذهبى	لوكيوس ابوليوس ترجمة د.على فهمى خشيم
سراديب	عفاف السيد
الزجاج المكسور	د . غبريال وهبه
ينابيع الحزن والمسرة	فتحى سلامة
يوميات عابر سبيل	فيصل سليم التلاوى
وتر مشدود	قاسم مسعد عليوة
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
حب وظلال	كوثر عبد الدايم
ترانزيت	ليلى الشربينى
مشوار	ليلى الشربينى
الرجل	ليلى الشربينى
رجال عرفتهم	ليلى الشربينى
الحلم	ليلى الشربينى
النغم	ليلى الشربينى
الخرابة ٢٠٠٠	محمد الشرقاوى
كوميديا الإنسجام	محمد بركة
أشياء لا تموت	محمد صفوت
إلحاح	محمد عبد السلام العمرى
بعد صلاة الجمعة	محمد عبد السلام العمرى
الخروج إلى النبع	محمد قطب
رشفات من قهوتى الساخنة	محمد محى الدين
الحبيب المجنون	د. محمود دهموش
فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
الهروب مع الوطن	ممدوح القديرى
نسيج الأسماء	منتصر القفاش
ثلاث حقائب للسفر	منى برنس
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
ديسمبر الدافئ	هدى جاد
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
قرد حمام	يوسف فاخورى

شعر ..

العنوان	المؤلف
أول الرؤيا	إبراهيم زولى
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولى
قصائد حب من العراق	البيـــاتى وآخرون
بدلاً من الصمت	درويش الأسيوطى
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطى
تماماً إلى جوار جثة يونسكو	رشيد الغمرى
كأنها نهاية الأرض	رفعت سلام
الألوان ترتعد بشراهة	شريف الشافعي
صلاة المودع	صبرى السيد
دنيــا تناديـنا	طارق الزياد
تلف	ظبية خميس
البحر، النجوم، العشب في كف واحدة	ظبية خميس
كتاب الأمكنة والتواريخ	عبد العزيز موافى
حواديت لفندى	عصام خميس
سيرة الماء	د . علاء عبد الهادى
راتب الألفة	علوان مهدى الجيلانى
إضاءة في خيمة الليل	علي فريد
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
عطر النغم الأخضر	عمر غراب
سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
أوراق مسافر	فيصل سليم التلاوى
إذهب قبل أن أبكى	د . لطيفة صالح
الغربة والعشق	مجدى رياض
مشاعر همجية	محسن عامر
غربة الصبح	محمد الفارس
وَنس	محمد الحسينى
ليالى العنقاء	محمد محسن
العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح لى	نادر ناشد

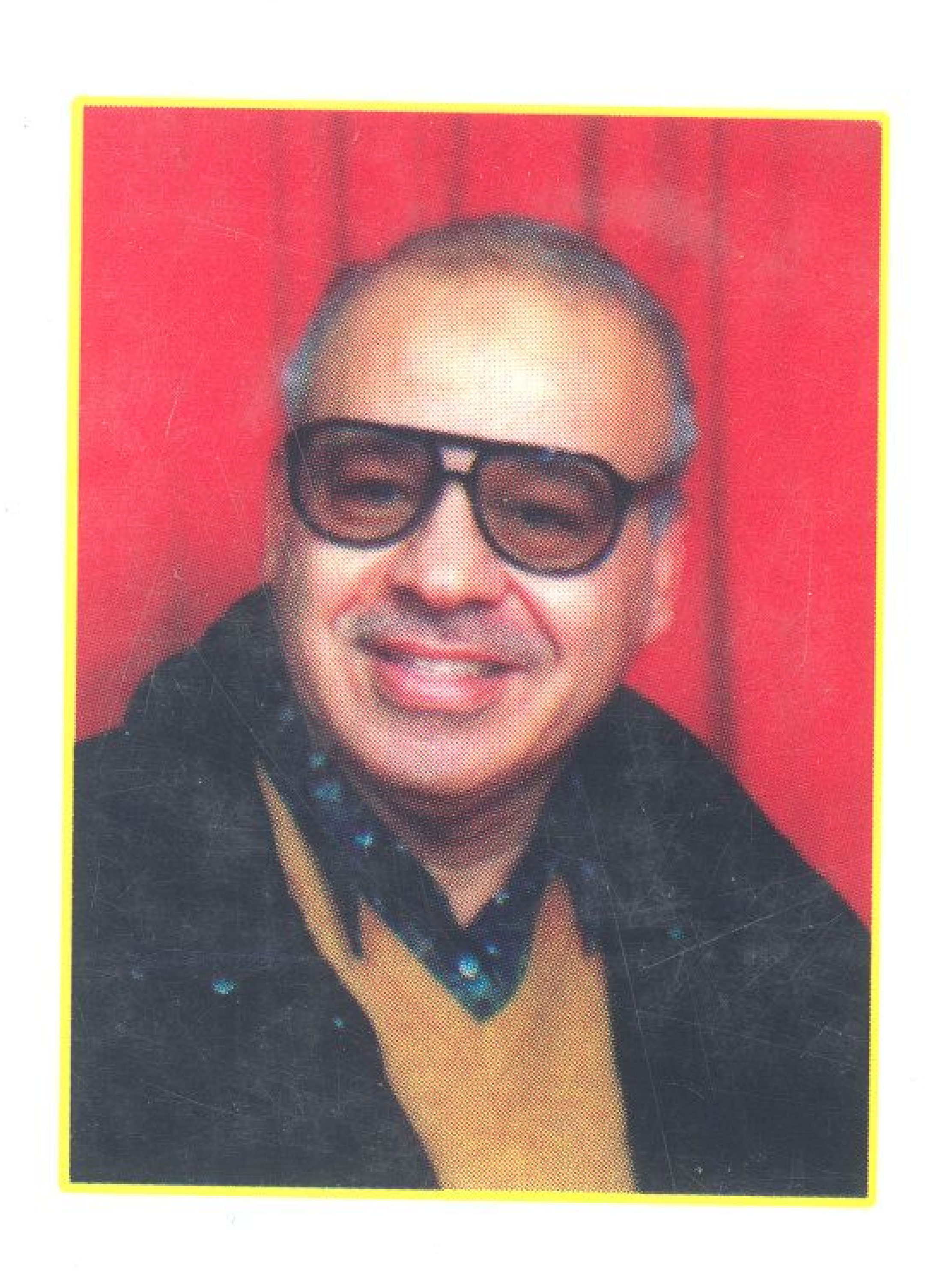
مسرح ..

العنوان	المؤلف
هذه الليلة الطويلة	د. أحمد صدقى الدجانى
اللعبة الأبدية ... (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
مملكة القرود	محمود عبد الحافظ

دراسات ..

العنوان	المؤلف
هاجس الكتابة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
تحديات عصر جديد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
الوقوف على الأمية عند عرب الجاهلية	أحمد الأحمدين
قراءة المعانى فى بحر التحولات	أحمد عزت سليم
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
اللغة والشكل	أمجد ريان
المثقفون العرب والتراث	جورج طرابيشى
ثقافة البادية	حاتم عبد الهادى
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب فى الأدب الصهيونى	خليل إبراهيم حسونة
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعوبية	سليمان الحكيم
البعد الغائب: نظرات فى القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
رواد الأدب العربي فى السعودية	شعيب عبد الفتاح
البواكير فى القصة القصيرة	شوقى عبد الحميد
رحلة الكلمات	د . على فهمى خشيم
بحثاً عن فرعون العربى	د . على فهمى خشيم
أعلام من الأدب العالمى	على عبد الفتاح
هيمنجواى حياته وأعماله الأدبية	د . غبريال وهبة
زمن الرواية: صوت اللحظة الصاخبة	مجدى إبراهيم
فى المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغنى
أدب الطفل العربي بين الواقع والمستقبل	ممدوح القديرى
الرواية العربية: رسوم وقراءات	نبيل سليمان

بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - تراث - أطفال .
خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.



- إنه الحب حين يجسد إحساسك بالحياة .
- أخاف أنك تشتهيها فقط .
- وما الفرق أليس فى الحب رغبة واشتهاء .
- سيشقيك ذلك . فالحياة تكون أكثر بساطة بعيداً عن عذاب الحب .

من اللهيب الأول
مغتربون

حياتى مغامرة تتدفق كنهر يجرف كل ما يعترضه ليصب كل شىء فيه داخل بحيرة حياتى رغمًا عنى ، أترك نفسى تسير مع تموجات النهر بتياره العنيف علّها تتخلص من توترها الطارئ المقيت فى صخب الحياة بلامبالاة .. قد تأتى ريح الخريف تجردنى من أوراقى

من اللهيب الثانى
نازحون

